العلاجُ الإسلامي
للعصبيةِ القبليةِ والتفاخرُ بالأنساب

ياسر محمد عبد الله الراشدي

The Islamic Therapy for Tribal traditions and boasted of genealogy

Yasser Muhammad Abdul Allah Al-Rashadiy

1 – Allah prevented in his book and the prophet Muhammad (Peace be upon him) Sunna the bad Morals at the beginning of Al- Da'wa (prophet message) while others needs years to get rid of them.

2 – The Morals closely related with people and individuals beliefs; if their Morals (are good) transcends their (conception) behaviors will (be graceful) do that too.

3- The Arabic peninsula suffered from aberrant (deviated) behaviors of it`s people (whom they belong on it) whether they are groups or individuals, so they sleazed (corrupt) the society and reflects uncivilized impression about their painful reality.

4- The religion changes the concepts so it bond would be more powerful than tribal traditions and family relations as well as the obedience of Allah and his Messenger are the most important than anything in life.

5- The scale of distinction between the people is the fear of Allah and Good deeds "Indeed, the most noble of you in the sight of Allah is the most righteous of you " not their genealogy.

Le traitement islamique de l'esprit tribal et la vanterie d'origine

Yasser Mohammed Abdullah Al-Rashidi…

1- Allah Le Tout-Puissant interdit dans le Saint Coran et le Prophète – PSL- dans la noble sunna prophétique la mauvaise éthique au début de l'appel, tandis que d'autres devraient des années pour être déracinés et présenter leurs inconvénients …

2-La morale est étroitement liée aux croyances des individus et des peuples, et si leurs croyances s'élèvent, leurs mœurs et comportements se purifieront parallelement.

3-La péninsule arabique a souffert de comportements déviés de ceux qui lui appartiennent, également des individus ou des groupes, pervertissant la vie des autres et reflétant l'image de la réalité barbare douloureuse…

4-L a religion comme on sait modifie les concepts, que son lien est plus élevé, plus fort, et plus préférable que celui, de l'esprit tribal de la parenté, et de la famille, puis préférant l'obéissance à **Allah** Le Tout-Puissant et au son Messager noble sur tout dans la vie…

5-la différenciation de la balance entre les gens est la piété et les bonnes actions, Le Tout-Puissant dit: **(certes le plus noble d'entre vous, auprès d'Allah est le plus pieux…Al Houdjourat-13)** après avoir été la glorification d'origine…

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ الَّذي أنزلَ على عبدهِ الكتابَ ولمْ يجعلْ لهُ عوجاً، والصَّلاةُ والسَّلامُ على صاحبِ الخلقِ العظيمِ سيِّدنا وحبيبنا محمَّدٍ وعلى آلهِ الطيبين، وصحبه الغرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وبعدُ:

فقدْ جاءَ الإسلامُ ليكونَ منهجَ حياةٍ، وليتولَّى قيادةَ البشريَّةِ، في تنظيمِها، وتوجيهِها، وصيانتِها ، ولمْ يجيءْ من عندِ اللهِ ﷻ ليكونَ مجردَّ عقيدةٍ في الضَّميرِ، أو شعائرَ تعبديَّةٍ تُؤَدَّى في المساجدِ، فهذهِ وتلكَ – على ضرورتِها للحياةِ البشريَّةِ وأهمِّيَّتِها في تربيةِ الضَّميرِ البشريِّ – لا تكفيانِ وحدَهما لقيادةِ الحياةِ وتنظِيمِها وصيانتِها، ما لمْ يقمْ على أساسِهما منهجٌ ونظامٌ وشريعةٌ تطبَّقُ عمليَّاً في حياةِ النَّاسِ.

فقد امتاز العرب من بينَ أممِ العالمِ وشعوبِهِ في العصرِ الجاهليِّ بأخلاقٍ تفردُوا بها أو فازوا بها بالقدحِ المعلَّى، كالنَّخوةِ، والأنفةِ، والشَّجاعةِ، والصَّراحةِ في القولِ، وحفظِ الجوارِ في الغالبِ الأعمِّ، وكلُّ ذلكَ من السُّلوكياتِ الَّتي أقرَّها نبيُّنا المُصطفى ﷺ وأثبتَها دينُنَا الإسلاميُّ الحنيفُ، وأضافَ على بعضِها، وضبَّطَ البعضَ الآخرَ بضوابطَ سماويَّةٍ من لَدُن حكيمٍ عليمٍ، وبيَّنَ ما هوَ مرفوضٌ في ديننا.

ولكنَّهم ابتلوا في العصرِ الأخيرِ لبعدِ عهدِهم من النُّبوَّةِ والأنبياءِ، وشدَّةِ تمسُّكِهم بدينِ الآباءِ، وتقاليدِ أمَّتِهم، بانحطاطٍ دينيٍّ شديدٍ، ووثنيَّةٍ مشينةٍ، قلَّما يوجدُ لها نظيرٌ في الأممِ المعاصِرةِ ، وأدواءٍ خُلُقِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ جعلتْ منْهُم أمَّةً مُتضعضعةَ الكيانِ، حاويةً لأسوءِ خصائصِ الحياةِ الجاهليَّةِ، وبعيدةً عن محاسنِ الأديانِ.

وتأتي في مقدِّمةِ ذلكَ العَصبيَّةُ القَبليَّةُ، وكانَ أساسُها الجُملةُ المأثورةُ عن العربِ ((أنصرْ أخاكَ ظالماً أو مظلــوماً))[1]، فالثَّاراتُ القبليَّةُ تشغلُ اهتماماتِهــم، هانتْ عليهمُ الحروبُ وإراقةُ الدِّماءِ حتَّى كانتْ تثيرُها حادثةٌ ليستْ بذاتِ خطرٍ.

---

(١) أول من قال انصر أخاك ظالما أو مظلوما جندب بن العنبر وعنى به ظاهره وهو ما أعتيد من حمية الجاهليَّة، لكن الإسلام هذَّب هذا المبدأ الجاهلي فيما بعد، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ

فهدم الإسلام هذه العَصبيَّةَ القَبليَّةَ، واستبدلها بالأخوَّةِ القائمةِ على الرابطةِ العقديَّة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴾ (١)، واستبدل التفاخرُ بالأنسابِ بقولهِ تعالى: ﴿ .. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ .. ﴾ (٢).

وكانَ من سنَّةِ الله ﷻ في خلقهِ أنْ تواجَهَ وتعالج كلُّ عقبات مرت بالدعوة في مكَّةَ والمدينةِ، فعالَجها النَّبيُّ ﷺ بتقويماتٍ ربَّانيَّةٍ وتوجيهاتٍ نبويَّةٍ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، فكانَ عنوانُ بحثي (العلاجُ الإسلامي للعصبيةِ القبليةِ والتفاخرُ بالأنسابِ).

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أنْ تكون خطته إجمالاً مكونة من: مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المبحث الاول : العصَبيةُ القبَليةُ ، والعلاجُ الإسلامي لها.

المبحث الثاني : التَفاخرُ بالأَنسابِ ، والعلاجُ الإسلامي له.

أما الخاتمة أوجزت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها من خلال هذا البحث، وأخيراً فإنَّ ما قدَّمته هو جهد بشري، فما كان فيه من الخيرِ والصوابِ فهو من الله ﷻ وحده، وما كان فيه من شرٍ وخطأ فمن نفسي، فأسأل اللهَ سبحانه العفوَ والغفران. وصلى اللهُ وسلمَ وباركَ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمَعين.

عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)) فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ:((تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)) ؛ ينظر: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١ م)، كتاب: الإكراه، باب: يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه، إذا خاف عليه القتل أو نحوه، رقم الحديث (٦٩٥٢) ؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي، المكتبة التجارية الكبرى (مصر/ ١٣٥٦هـ).

(١) الحجرات ، جزء من الآية : ١٠.

(٢) الحجرات ، جزء من الآية : ١٣.

المبحث الاول

العصَبيةُ القبلَيةُ ، والعلاجُ الإسلامي لها

شكَّلتِ القبيلةُ وحدةً مهمةً من وحداتِ المجتمعِ العربيِّ في شبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ، فعاشتْ تلكَ القبائلَ مجْتَمِعَةً ومتفرِّقَةً في تِلْكَ البقعةِ الجغرافيةِ، وتمثَّلَتْ كلُّ وحدةٍ من وحداتِ ذلك المجتمعِ بعاداتٍ وسلوكياتٍ وتقاليـــدَ توارثتها من أجيالٍ سبقتها في التاريخِ تترابطُ من خِلالها، وقدْ كانتِ العَصبيَّةُ القَبليَّةُ هي أساسُ النظامِ الاجتماعيِّ الجاهليِّ فإنَّ قواعدَهُ كلُّها إنْبَنَتْ على العصبيَّةِ، عصبيّةُ الدَّمِ والرَّحِمِ، وعصبيّةُ العشيرةِ والقبيلةِ، فقدْ كانوا يَحْيُونَ للعصبيَّةِ القبليَّةِ ويموتون لها في الحقِّ والباطلِ، ولابدَّ من الوقوفِ على معاني العصبيَّةِ والقبليَّة كيْ نعرفَ ماذا تعني هذهِ الألفاظُ وما دلالاتها.

المطلب الأول

العَصبيَّةُ القَبليَّةُ لغةً واصطلاحاً

أولاً : العصبيَّةُ لغةً واصطلاحاً :

١- العصبيَّةُ لغةً مأخوذةٌ من ((العَصْب: وهو الطـــيُّ الشديدُ. وعَصَـــبَ الشيءَ يَعْصِبُه عَصْباً: طَواه ولَواه؛ وَقِيـــلَ: شَدَّه، وعصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه. والعصبةُ: الَّذين يرثونَ الرَّجلَ عن كلالةٍ، من غيرِ والدٍ ولا ولدٍ. سمُّوا عُصبة لأنَّهم عصبوا بنسبه أي استكـــفوا به، فالأبُ طرفٌ، والابنُ طرفٌ، والعمُّ جانبٌ، والأخُ جانبٌ، والجمعُ العصباتُ. والعربُ تسمِّي قراباتِ الرَّجلِ: أطرافُهُ، ولمَّا أحاطتْ به هذه القراباتُ، وعصبت بنَسبه، سمُّوا عُصْبَة. وكلّ شيءٍ استدارَ بشيءٍ، فقدْ عَصَبَ بِهِ. والتَّعَصُّبُ: من العصبيَّةِ، وقد تعصَّبوا عليهم إذا تجمَّعوا، فإذا تجمَّعوا على فريقٍ آخر، قيل: تعصَّبوا. والعَصَبِيُّ :هو الذي يغضبُ لعُصْبَتِهِ، ويحامي عنهـــم، والعصبيَّة والتعصب: المحاماةُ

والمـــدافعة))[١]، ((والعُصـــْبة والعِصابة: جمَاعَة))[٢]، ومنه حديث: ((اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هذهِ العِصَابَةَ مِنْ أهْلِ الإسلامِ لا تُعْبَدُ في الأرض))[٣].

٢- العصبيَّة اصطلاحاً : قالَ الأزهَريُّ : العصبيَّةُ: ((أنْ يدعوَ الرجلُ إلى نصرةِ عُصْبَتِه، والتألُّبِ معهم، على من يُناوِئُهُم، ظالمينَ كانوا أو مظلومينَ))[٤]، وعرَّفها ابنُ خلدون[٥] بأنَّها:((النُّعرة على ذوي القربى وأهلِ الأرحامِ أنْ ينالهمْ ضيمٌ أو تصيبهم هلكةٌ))[٦]، وعرَّفها غيرُ واحدٍ بأنَّها: ((دستورٌ عرفيٌّ عامٌّ يشتركُ فيه كلُّ أفرادِ القبيلةِ))[٧]، إلى غيرِ ذلكَ من تفسيراتٍ وتعريفاتٍ للعصبيَّةِ تدور في مجملها بين معنيين رئيسيين : الاجتماعُ، والنصرةُ، فهما يمثلانِ صُلْبَ العصبيَّةِ، سواءً كان ذلك الاجتماعُ والتناصرُ في الحقِّ أو الباطلِ.

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على ابن منظور الأنصاري الإفريقي، ت: ٧١١هـ، ط٣، دار صادر (بيروت/ ١٤١٤هـ /١٩٨٤م)،ج١/ ص٦٠٧-٦٠٨.

(٢) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور، ت: ٣٧٠هـ، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي (بيروت/٢٠٠١م)، ج٢/ ص٢٩.

(٣) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المعروف بصحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م). كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم الحديث (١٧٦٣) وهو جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري، ج٢/ ص٣٠.

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الاشبيلي، من ولد وائل بن حجر، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، نشأ بتونس، ورحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات؛ ينظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، ت: ١٣٩٦هـ، ط١٥، دار العلم للملايين (بيروت/ ٢٠٠٢ م)ج٣/ ص٣٠٣.

(٦) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ط٥، دار القلم (بيروت/ ١٩٨٤م) ص ١٢٨.

(٧) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، أحمد إبراهيم الشريف ، دار الفكر العربي (بيروت)، ص٤٩.

ثانياً: القبليَّة لغةً واصطلاحاً :

١- القبليَّة لغةً مأخوذةٌ من القبيلةِ ((والجمعُ قبائلٌ. وقبائلُ الرَّحْلِ: أحناؤهُ المشعوبُ بعضُها إلى بعضٍ، وقبائلُ الشَّجرةِ : أغصانُها))(١).

٢- والقبيلةُ اصطلاحاً هي من الناسِ : بنو أبٍ واحدٍ، يقالُ لكلِّ جماعةٍ من واحدٍ قبيلةٌ، ويقالُ لكلِّ جمعٍ مِنْ شيءٍ واحدٍ قبيلٌ، قَالَ الله ﷻ: ﴿ .. **إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ** .. ﴾ (٢).

ومن خلالِ التعريفاتِ السابقةِ للعصبيَّة والقبليَّة يمكن أنْ نعرِّفَ العَصبيَّةَ القَبليَّةَ بأنَّها: ((تضامنُ قومٍ تجمعهم آصرةُ النَّسَبِ أوْ الحلْفِ، مع بعضهم بعضاً ضدَّ مَنْ يُناوئهم، ظالمينَ أو مظلومين))(٣)، وهذه النعرةُ والشفقةُ على ذوي الأرحامِ خلقها الله الله في داخلِ كلِّ إنسانٍ، إذْ بها تكونُ التعاضدُ والتناصرُ وتعظمُ رهبةُ العدوِّ لهم، وأعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوةِ يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيه: ﴿ **قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ** ﴾(٤)، أي أنَّه لا يُتوهَّمُ العدوانُ على أحدٍ مع وجودِ العصبةِ(٥).

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على ابن منظور الأنصاري الإفريقي، ت: ٧١١ه ، ط٣، دار صادر (بيروت/ ١٤١٤هـ /١٩٨٤م) ج ١١/ ص٥٤١.

(٢) الأعراف، جزء من الآية : ٢٧.

(٣) العصبية القبلية من منظور إسلامي، د. خالد عبد الرحمن الجريشي، ط٢، مكتبة الملك فهد الوطنية (الرياض/١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص٣٢.

(٤) يوسف: ١٤.

(٥) ينظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ط٥، دار القلم (بيروت/ ١٩٨٤م)، ص١٢٨.

المطلب الثاني

الأسُسُ التي تقومُ عليها العَصبيَّةُ القَبليَّةُ

تقوم العَصبيَّةُ القَبليَّةُ على أساسينِ رئيسيَّينِ:

أولاً: وحـــدةُ الدَّم، كما أسلفتُ فإنَّ عصبيَّةَ الدَّمِ طبيعةٌ في البشرِ إلا القليلَ، وعلى أساسِها تكونُ المناصرةُ والتَّلاحمُ بين أفرادِ القبيلةِ الواحدةِ المنحدرينَ من أبٍ واحدٍ ((فإنَّ القريبَ يجدُ في نفسهِ غضاضةً من ظلمِ قريبهِ أوِ العداءِ عليه ويودُّ لوْ يحولُ بينهُ وبينَ ما يصلهُ من المَعَاطِبِ والمهالكِ نزعةٌ طبيعيةٌ في البشرِ مذْ كانوا))[١] ، وفي ظلِّ هذه الرابطةِ نشأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّمُ العلاقةَ بين الفردِ والجماعةِ والجماعةِ على أساسٍ من التضامنِ بينهما في الحقوقِ والواجباتِ، وهذا القانونُ العرفيُّ كانتْ القبيلةُ تتمسكُ بهِ أشدَّ التمسكِ في نظامها السياسيِّ والاجتماعيِّ على السواءِ، وعليها واجبُ الانتصارِ لهُ مظلومًا، والوقوفُ إلى جانبهِ ظالمًا، وكان يكفي أنْ يستغيثَ فإذا السيوفُ مصلتةٌ والرماحُ مشرعةٌ، وإذا الدماءُ تتصبَّبُ لأقلِّ الأسبابِ[٢] :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانَاً[٣]

ثانياً: الحلفُ والولاءُ ، فإنَّ العَصبيَّةَ القَبليَّةَ تقومُ على أساسِ الحلفِ والولاءِ كما تقومُ على وحدةِ الدَّمِ ((والحِلفُ، بالكسرِ، العهدُ يكون بين القومِ. وقد حالفهُ أيْ عاهده، وتحالفوا أي تعاهدوا وفي حديث أنسٍ ﷺ[٤] قال: «حالفَ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ص١٢٨.

(٢) ينظر: مكة والمدينة في الجاهليَّة وعهد الرسول، أحمد إبراهيم الشريف، ص ٣٦.

(٣) القائل هو: وداك بن نميل المازني ؛ ينظر: شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد ابن الحسن المرزوقي الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) ص٩٧.

(٤) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم خادم رسول الله ﷺ واحد المكثرين من الرواية عنه، شهد بدراً وهو غلام يخدم النبي ﷺ، ثمَّ

قريشٍ والأنصارِ في دارِهِ التي بالمدينةِ»[١]، أيْ آخى بينهم))[٢]، وأصلُ الحلفِ من المعاقدةِ والمعاهدةِ على التعاضدِ والاتفاق ((إذْ نعرةُ كلِّ أحدٍ على أهلِ ولائهِ وحلفهِ للألفةِ التي تلحقُ النفسَ من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجهٍ من وجوهِ النَّسبِ وذلكَ لأجلِ اللُّحمةِ الحاصلةِ من الولاءِ مثلَ لحمةِ النَّسبِ أو قريباً منها))[٣]، وتمتد هذه العصبية حتى تشمل الرقيق (العبيد) وهم المقصودين بالولاء ((وهو المِلْكُ، والمَوْلى: المالكُ والعَبد وَهُوَ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ فَهُوَ: الرَّبُّ والمالك والسَّيِّدُ والْمُنْعِم والْمُعْتِقُ والنَّاصِر والمُحِبُّ والتَّابع والجارُ وَابْنُ العَم والحَلِيفُ والعَقِيدُ والصِّهْرُ والعَبْدُ والمُعْتَقُ والمُنْعَمُ عَلَيْهِ))[٤]، وقد فسَّرَ ابنُ خلدون امتداد هذه العصبيَّةِ للرقيق بقوله: ((فإذا اصطنعَ أهلُ العصبيَّةِ قوماً من غيرِ نسبهمْ أو استرقُّوا العبدانِ والموالي والتحمُــوا به ضرب معهــم أولئك الموالي والمصطنعونَ بنسبِهم في تلكَ العصبيَّةِ ولبسوا جلدتَها كأنَّها عصبتُهم وحصلَ لهم من الانتظامِ في العصبيَّةِ مساهمةً في نسبها كما قالَ ﷺ: « مولى القومِ منْهــم »[٥]، وسواءً كان مولى رقٍ أو مولى اصطناعٍ وحلفٍ))[١].

شهد الفتوح ثم قطن البصرة ومات بها، وهو آخر الصحابة موتا بالبصرة؛ ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، ت: ٨٥٢ه ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل (بيروت/ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ج١/ ص١٢٦-١٢٧.

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ، المعروف بصحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: ٢٦١هـ، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مؤاخاة النبي ﷺ أصحابه، رقم الحديث (٢٥٢٩).

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ج٩ / ص٥٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ١٢٩.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، ج١٥/ ص٤٠٩.

(٥) مسند أحمد، مسند الكوفيين، حديث رفاعة بن رافع الزرقي، رقم الحديث (١٨٩٩٢) وقال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح لغيره؛ السنن للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب

المطلب الثالث

العَصبيَّةُ القَبليَّةُ في مكَّةَ

لقد بعثَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ في أمةٍ متناحرةٍ، كان أحدُهم يقتلُ قريبَهُ على موردِ الشاةِ، وكانتْ الحروبُ تستمرُّ سنواتٍ بينهم لأتفهِ الأسبابِ، فإنَّ طبيعةَ تكوينِ المجتمعِ العربيِّ الذي بُعثَ فيه الرَّسولُ ﷺ مجتمعٌ قبليٌّ لا يعرفُ الوحدةَ والتماسكَ والنظامَ، ولمْ يعتدِ الانقيادَ لسلطةٍ موحَّدةٍ أوِ الالتزامَ بشعائرَ وأخلاقياتٍ وعلاقاتٍ ثابتةٍ دائمةٍ، وقد علَّمَتْهُ تقاليدُ وممارساتُ قرونٍ طويلةٍ من التسيُّبِ والانفلاتِ؛ التَّمرُّدَ على أيَّةٍ محاولةٍ للضبطِ والتَّنظيمِ، فالأوطانُ الكثيرةُ والقبائلُ والعصائبُ قلَّ أنْ تستحكمَ فيها دولةٌ؛ والسببُ في ذلكَ اختلافُ الآراءِ والأهواءِ، وأنَّ وراءَ كلِّ رأيٍ منها وهوىً عصبيةٌ تمانعُ دونها، فيكثرُ الانتقاضُ على الدولةِ والخروجُ عليها في كلِّ وقتٍ وإنْ كانتْ ذاتَ عصبيَّةٍ لأنَّ كلَّ عصبيَّةٍ مِمَّنْ تحتَ يدها تظنُّ في نفسها منعةً وقوةً، والعربيُّ – فضلاً عن هذا – لا يعرفُ انتماءً لغيرِ قبيلتِهِ وخضوعاً لغيرِ مشايخِها، وانقياداً لغيرِ مواقفها الَّتي تحدِّدُها مصالحها القبليَّة، وحرصها على السيادةِ والاستعلاءِ بين القبائل[٢]، وخيرُ شاهدٍ على ذلك ما وقعَ قبلَ مبعثِ الرَّسولِ ﷺ من

بن علي الخراساني، الشهير بالنسائي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف (الرياض/ ١٤١٧هـ) كتاب: الزكاة، باب: مولى القوم منهم، رقم الحديث (٢٦١٢) وقال الألباني: صحيح؛ مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى التميمي، الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث (دمشق/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) أول مسند ابن عباس، رقم الحديث (٢٧٢٨) وقال حسين سليم: إسناده ضعيف؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن أبي ليلى، وفيه كلام،، كتاب: الزكاة، باب: فيمن لا تحل له الزكاة، رقم الحديث (٤٤٩١).

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٣٥.

(٢) ينظر: مقدمة ابن خلدون ، ص ١٦٤؛ دراسة في السيرة ، د. عماد الدين خليل ، ط ٣، دار النفائس (بيروت / ٢٠٠٧م) ص ١٠٣.

التحكيمِ في قضيَّةِ وضعِ الحجرِ الأسودِ في مكانهِ بعدَ بناءِ الكعبةِ المشرَّفةِ التي تهدَّمتْ بسببِ السِّيولِ الَّتي جرفتْها، وتعرِّضِ كنزِها للسَّرقةِ إذْ كانتْ رَضْماً[١] فوقَ القامةِ ، فأرادتْ قريشُ إعادةَ بنائها وتسقيفِها، فلمَّا وَصلوا إلى موضعَ الرَّكْنِ – الحجر الأسود– اختلفوا فيمن يكونُ له شرفُ وضعِ الحجرِ في مكانهِ، وكادتْ أنْ تكونَ بينهم معركةٌ ضروسٌ بسببِ العصبيَّةِ المقيتةِ لولا أنَّ اللهَ ﷻ سخَّرَ لهم الصادقَ الأمينَ فكانَ حكمهُ وأداً للفتنةِ في مهدِها، إذْ جعلوا بينهم – فيما اختلفوا فيه – أوَّلَ مَنْ يدخلُ مِنْ بابِ المسجدِ ففعلوا، فكانَ أوَّلُ داخلٍ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ فلمَّا رأوْهُ قالوا: هذا الأمينُ، رضينا، هذا محمَّدٌ، فلمَّا انتَهى إليهم وأخبروه الخبرَ قال ﷺ: ((هلمَّ إليَّ ثوباً))، فأُتي به، فأخذَ الركنَ فوضعهُ فيه بيده، ثمَّ قال: (لتأخذْ كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوبِ، ثمَّ ارْفعُوه جميعاً)، ففعلوا حتَّى إذا بلغوا بهِ موضعَهُ، وضعَهُ هو بيده، ثمَّ بني عليه[٢].

فقدْ ((كانَ أفرادُ القبيلةِ ببطونِها وعشائرِها يتضامنونَ تجاهَ القبائلِ الأُخرى في الحروبِ والدماءِ، والدفاعِ عن المصالحِ والتبعاتِ المشتركةِ، ويتناصرونَ حسبَ الشعارِ القبليِّ (انصرْ أخاكَ ظالمًا أوْ مظلومًا)، ويتعاونونَ على المغارم، فكلُّ فردٍ في القبيلةِ يرى أنَّ الاعتداءَ على فردٍ منها إنَّما هو اعتداءٌ واقعٌ عليهِ، وأنَّ مِنْ واجبهِ أنْ ينتصرَ لهُ ويدفعَ عنهُ، أو يأخذَ بثأرهِ إذا قتلَ ممَّن اعتدى عليه أوْ مِنْ أيِّ فردٍ من أفرادِ قبيلتهِ، وإذا نشبتْ حربٌ بينَ قبيلتينِ تضامنَ أفرادُ كلِّ قبيلةٍ في الدفاعِ والهجومِ مهما كانَ الباعثُ على هذه الحربِ، حتى ولو كانتْ مُيولهم وعواطفهُم متباينةً))[٣]، فلقد وقفَ بنو هاشمَ يحمونَ النبيَّ ﷺ في مكةَ ضدَّ بقيةِ بطونِ قريشٍ

(١) الرضم: صخور عظام بعضها على بعض؛ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج١٢/ ص٢٤٣.

(٢) ينظر: السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مكتبة ابن حجر (بيروت / ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) ج١/ ص٢٣٥.

(٣) مكة والمدينة في الجاهليَّة وعهد الرسول، أحمد إبراهيم الشريف، ص ٥٥.

استجابةً لعصبيَّةِ الرَّحمِ والقربَى بالرَّغمِ من بقائهِم على دينِ آبائهم، يقولُ اللهُ ﷻ في ذلكَ: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ .. ﴾ [١]، نزلتْ في أبي طالب[٢] حيثُ أنَّه كانَ ينهى الناسَ عن إيذاءِ رسولِ اللهِ ﷺ وينأى عمَّا جاءَ بهِ من الهُدى، حتى أبو لهب[٣] عمُّ النبيِّ ﷺ الذي كان قد شذَّ ومالا قريشاً فإنَّه لمَّا ماتَ أبو طالب ذهبَ إلى محمدٍ ﷺ فقال له: ((يا محمدُ امضِ لما أردتَ وما كنتَ صانعاً إذْ كانَ أبو طالب حياً فاصنعْهُ،لا واللاتِ لا يوصلُ إليك حتى أموتَ! وسبَّ ابن الغيطلةِ[٤] النبيَّ ﷺ فأقبلَ عليه أبو لهبٍ فنالَ منْهُ، فولَّى وهو يصيحُ: يا معشر قريــشٍ صبأ أبو عتبة! فأقبلتْ قريشُ حتى وقفوا على أبي لهب، فقال: ما فارقتُ دينَ عبد المطلب ولكنِّي أمنعُ ابنَ أخي أنْ يُضَامَ حتى يمضيَ لما يريدُ، قالوا: قــدْ أحسنتَ وأجملتَ ووصلتَ الرَّحمَ))[٥]. فالعصبيَّةُ كانتْ مقدسةً عندهم كالدِّينِ المتَّبعِ.

وقد كان الصراعُ القبليُّ في مكةَ ((والتنافسُ على الرياسةِ، والشَّرفِ، والسُّؤدُدِ، ذا جذورٍ في الأعرافِ، والعوائدِ القبليَّةِ، ولذلكَ تجدُ المعارضينَ للدعوةِ المنتسبينَ

---

(١) الأنعام ، جزء من الآية: ٢٦.

(٢) أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عم رسول الله، وشقيق أبيه، اشتهر بكنيته، واسمه عبد مناف، لما مات عبد المطلب أوصى بمحمد إلى أبي طالب فكفله، وأحسن تربيته ولما بعث قام في نصرته وذب عنه من عاداه ؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٧/ ص٢٣٥.

(٣) أبو لهب اسمه عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي، عم رسول الله ﷺ وأحد الأشراف الشجعان في الجاهليَّة، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين، كان غنيا عتيا، آذى المسلمين وحرض عليهم، وفيه نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد: ١ – ٢] مات بعد بدر بأيام؛ ينظر: الأعلام، الزركلي، ج٤/ ص١٢.

(٤) هو الحارث بن قيس بن عدي ابن الغيطلة ، والغيطلة أمه كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ؛ ينظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البغدادي المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤١٠هـ/١٩٩٠ م) ج١/ ص١٥٧.

(٥) مكة والمدينة في الجاهليَّة وعهد الرسول، أحمد إبراهيم الشريف، ص ٥٦.

للبطنِ الذي ينتسبُ إليه الرَّسولُ ﷺ يحتجونَ على رسولِ اللهِ ﷺ بأنّهُ ليس شيخاً ذا رياسةٍ وتقدُّمٍ فيهم، والمعارضينَ من البطونِ الأخرى يرفضونَ الإسلامَ خوفاً على مناصبهِم ومكانتهِم، والمعارضينَ من القبائلِ الأخرَى يرفضونَها حفاظاً على على مراكزِ قبائلهِم وتكبراً على إتِّباعِ فردٍ من قبيلةٍ أخرى))[١]، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه[٢] قال:((إنَّ أوَّل يومٍ عرفتُ رسولَ اللهِ ﷺ أنِّي كنتُ أمشي أنا وأبو جهل بن هشام[٣] في بعض أزقةِ مكةَ، إذْ لقينا رسولَ الله ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ لأبي جهل: (يا أبا الحكم! هلمَّ[٤] إلى الله ﷻ وإلى رسوله أدعوكَ إلى الله) قال أبو جهل يا محمدُ، هلْ أنتَ مُنْتَهٍ عن سبِّ آلهتنا؟ هلْ تريدُ إلَّا أنْ نشهدَ أنْ قدْ بلَّغتَ، فنحنُ نشهدُ أنْ قدْ بلَّغتَ، فو اللهِ لو أنِّي أعلمُ أنَّ ما تقولُ حقٌّ ما اتبعتك. فانصرفَ رسولُ الله ﷺ وأقبلَ عليَّ، فقال: فو الله إنِّي لأعلمُ أنَّ ما يقولُ حقٌّ، ولكنَّ بني قصي، قالوا: فينا الحجابةُ[٥]، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوةُ[١]، فقلنا: نعم، ثم قالوا:

---

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ، د. علي محمد محمد الصلابي ، دار ابن كثير (دمشق / ٢٠٠٤) ج١ / ص٢٣٧.

(٢) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عيسى، أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها، وشهد بيعة الرضوان، ولاه عمر الكوفة، وأقره عثمان ثم عزله، فلما قتل عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمين، ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع الناس عليه، ثم ولاه بعد ذلك الكوفة؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٦/ ص١٩٧.

(٣) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهليَّة. سودته قريش ولم يطر شاربه فأدخلته دار الندوة مع الكهول، شهد بدرا مع المشركين، فكان من قتلاها ؛ ينظر: عيون الأخبار، = =عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، بدون طبعة، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤١٨هـ) ج١/ ص٣٣٣؛ الأعلام، الزركلي، ج٥/ ص٨٧.

(٤) هلمَّ: كلمة دعاء، أي تعال؛ ينظر: المعجم الوسيط، الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، ط٢، دار الأمواج (بيروت/ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج٢ / ٩٩٢.

(٥) الحجابة: حجب بيت الله الحرام؛ مفاتيح العلوم، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، ط٢، دار الكتاب العربي (بيروت) ص١٤٥.

فينا اللواءُ[٢] ، فقلنا: نعم قالوا: فينا السقايةُ[٣] فقلنا: نعم، ثم أطعمُوا وأطعمنا حتى إذا تحاكتِ[٤] الركبُ، قالوا: منَّا نبيٌّ، والله لا أفعلُ))[٥].

المطلب الرابع

العَصبيَّةُ القَبليَّةُ في المدينةِ

تختلفُ المدينةُ التي هاجرَ إليها الرسولُ ﷺ اختلافاً بيِّناً عن مكةَ المكرمةِ في تركيبةِ سكانها، فمكةُ فيها قريشٌ ببطونها، ولها السيادةُ فيها، وتجمعهم غايةٌ واحدةٌ رغمَ اختلافها وهي: خدمةُ البيتِ الحرامِ، وبقيَّةُ بطونها قليلة لا تكادُ تذكرُ، وهم اللصقاء[٦]، وأمَّا المدينةُ فيتكونُ سكَّانُها من قبائلَ عدَّةٍ أكبرها: الأوسُ[٧]،

---

(١) دار الندوة: دار بمكة كانوا يجتمعون فيها للتشاور والندوة من الندي والنادي هو المجلس؛ المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٢) اللواء: الراية يمسكها صاحب الجيش؛ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج١٥/ ص٢٦٦.

(٣) السقاية: سقي الحاج؛ مفاتيح العلوم، أبو عبد الله الخوارزمي ، ص١٤٥.

(٤) تحاكت: تماست واصطكت، يريد تساويهم في الشرف والمنزلة، وقيل: أراد تجاثيهم على الركب للتفاخر؛ لسان العرب، ابن منظور، ج١٠/ ص٤١٤.

(٥) دلائل النبوة ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ج٢/ ص٢٠٧؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت/١٤٠٧هـ /١٩٨٧م) ج١/ ص١٦١.

(٦) الملصق: هو الرجل المقيم في الحي وليس منهم بنسب؛ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج ١٠/ ص٣٣٠.

(٧) الأوس: بطن من القحطانية، وهم بنو الأوس بن حارثة بن تغلب بن مزيقيا، وهم أحد قبيلتي الأنصار، والأوس هذا هو أخو الخزرج، وكان لهم ملك يثرب نزلوها عند خروجهم من اليمن وجاء الإسلام وهم بها فكانوا أنصاراً للنبي ﷺ وأعقابهم كثيرون متفرقون في المشرق والمغرب؛ ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، أحمد بن علي القلقشندى ،

والخزرجُ [١]، واليهودُ، وبعضُ القبائلِ العربيةِ الصغيرةِ، وليستْ لهذهِ القبائـــلِ غايةٌ تَجمعهُم ولا مطلبٌ يوحِّدهم، بلْ كما وصفهمُ اللهُ ﷻ: ﴿.. إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ..﴾[٢]، وفي القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ يمكنُ أنْ نستخلصَ منها ما كانَ للعصبيَّةِ القبليَّةِ من شأنٍ كبيرٍ في المجتمعِ العربيِّ، ظهرَ أثرهُ في الصراعِ بين مكةَ والمدينةِ في أيامِ النبيِّ ﷺ فقدْ كانَ في المدينةِ منافقونَ ومشركونَ، لم يمنعهمْ أنْ يُشاركوا المسلمينَ في القتالِ أنَّهم كانوا يخالفونهم في الدينِ وفي الميولِ، وذلك بدافعِ العَصبيَّةِ القَبليَّةِ[٣]، ومن تلكَ الآياتِ قوله تعالى: ﴿..وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[٤]، قال القرطبيُّ[٥]: ((واختلفَ الناسُ في معنى قولـــه:

تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط٢، دار الكتاب أللبنانين (بيروت/ ١٤٠٠هـــ/ ١٩٨٠م) ج١/ ص٩٤.

(١) الخزرج: بطن من مزيقيا من الأزد غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم: الخزرج الأكبر بن حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا، والخزرج هؤلاء هم المراد بالخزرج عند الإطلاق، وهم إحدى قبيلتي الأنصار أخوة الأوس ؛ المصدر نفسه، ج ١/ ص ٥٢.

(٢) آل عمران، جزء من الآية: ١٠٣.

(٣) الأوس: بطن من القحطانية، وهم بنو الأوس بن حارثة بن تغلب بن مزيقيا، وهم أحد قبيلتي الأنصار، والأوس هذا هو أخو الخزرج، وكان لهم ملك يثرب نزلوها عند خروجهم من اليمن وجاء الإسلام وهم بها فكانوا أنصاراً للنبي ﷺ وأعقابهم كثيرون متفرقون في المشرق والمغرب؛ ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن علي القلقشندى ، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط٢، دار الكتاب أللبنانين (بيروت/ ١٤٠٠هـــ/ ١٩٨٠م) ج١/ ص٩٤.

(٤) آل عمران، جزء من الآية: ١٦٧.

(٥) الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجى القرطبي صاحب كتاب التذكرة بأمور الآخرة، والتفسير الجامع لأحكام القرآن، كان إماما علَماً من الغواصين على معاني الحديث؛ ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد ابن

﴿.. أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ..﴾، فذهبَ قومٌ من المفسرينَ إلى أنَّ قولَ عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما[١]: ﴿..أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ..﴾ إنَّما هو استدعاءٌ إلى القتالِ حميـــةً، لأنَّهُ استدعاهم إلى القتالِ في سبيلِ الله، وهي أنْ تكونَ كلمـــةَ اللهِ هي العليا، فلمَّا رأى أنَّهم ليســـوا على ذلك عرض عليهم الوجهَ الذي يحشمهم ويبعثُ الأنفةَ، أيْ أو قاتلوا دفاعاً عن الحوزةِ))[٢].

وفي غزوةِ بدرٍ الكبرى خرجتْ قريشُ بطراً ورئاءَ النَّاسِ للصدِّ عن سبيلِ اللهِ كما وصفهم اللهُ ﷻ: ﴿.. خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾[٣]، وأخرجتْ معها أناساً من بني هاشمَ مكرهينَ على القتالِ بحكمِ العَصبيَّةِ القَبليَّةِ، وكانتْ لهم مواقفُ مشكورةٌ في منْعِ النبيِّ ﷺ وحمايته، أو مساعٍ حميدةٌ في ردِّ الظلمِ والطُّغيانِ، فقالَ لأصحابهِ يومئذٍ: (إنَّي قدْ عرفتُ رجالاً من بني هاشمَ وغيرهم قدْ خرجُوا مُكرهينَ، لا حاجةَ لهم بقتالِنَا، فمَنْ لقيَ منكمْ أحداً من بنيَ هاشمَ فلا يقتلْـــهُ، ومَنْ لقيَ أبا البختري[٤] بن هشام بن الحارث بن أسدٍ فلا يقـــتلْهُ، ومَنْ

محمد ابن العماد ألعكري الحنبلي، تحقيق: محمود الأرنؤوط ، دار ابن كثير (دمشق/ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج٥/ ص٣٣٥.

(١) عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجى السلمي والد جابر بن عبد الله الصحابي المشهور معدود في أهل العقبة وبدر وكان من النقباء واستشهد بأحد ثبت ذكره في الصحيحين من حديث ولده ؛ ينظر: الإصابة، لابن حجر، ج ٤/ ص١٨٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجى شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط٢، الوجه استشهد يوم اليمامة وهو ابن (٥٦) سنة ؛ ينظر: الإصابة ، ابن حجر، ج٧/ ص٨٧.

(٣) الأنفال، جزء من الآية: ٤٧.

(٤) العاص بن هشام بن الحارث بن أسد، من زعماء قريش في الجاهليَّة. كان ممن نقض الصحيفة التي تعاقد فيها مشركوا قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، ولم يعرف عنه إيذاء للنّبيّ ﷺ، حضر بدرا مع المشركين ورغم نهى النبي ﷺ عن قتـــله، إلا أن

لقيَ العباسَ بن عبد المطلب[١] عمَّ رسولِ الله ﷺ فلا يقتلْهُ، فإنَّه إنَّما خرجَ مستكرهاً) وفي ثـــورةٍ من الحميَّةِ والغضـــبِ، بدرتْ بادرةٌ من رجلٍ من خيـــارِ المسلمينَ وهو أبو حذيفةَ ابن عتبة[٢] ، فقال: أنقتلُ آبـــاءَنا وأبناءَنا وإخواننَا ونتـــركُ العباسَ؟ واللهِ لَئِنْ لَقِيْتُهُ لألحمنَّهُ [٣] بالسيفِ، فبلغتْ مَقالتُهُ رسولَ اللهِ ﷺ فقال لعمرَ: « يا أبا حفصٍ أيُضربُ وجهُ عمِّ رسولِ اللهِ بالسيفِ؟» فقال عمـــرُ: يا رسولَ الله! دعْني فلأضربْ عنقَهُ بالسيف، فو اللهِ لقد نافقَ، ولكنَّ الرسولَ ﷺ أبى وغفرَ له ما بدرَ بحسنِ نيَّةٍ وصدقٍ وإيمانٍ[٤].

المجدر بن ذياد البلوي قتله؛ ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ج١/ ص٤٢٧ وما بعدها؛ إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) ج١/ ص٨٩، وج١٤/ ص٣٣١.

(١) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أبو الفضل، كان إليه في الجاهليَّة السقاية والعمارة وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم وشهد بدرا مع المشركين مكرها، فأسر فافتدى نفسه، ورجع إلى مكة فأسلم وكتم قومه ذلك وصار يكتب إلى النبي ﷺ بالأخبار، ثم هاجر قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين، وقد حدث عن النبي ﷺ بأحاديث؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٣/ ص٦٣١.

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي العبشمي، كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، ثبت ذكره في الصحيحين، كان طوالا حسن الوجه استشهد يوم اليمامة وهو ابن (٥٦) سنة؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٧/ ص٨٧.

(٣) لألحمنّه : أي لأطعنن لحمه بالسيف ، ولأخالطنه به ؛ ينظر: السيرة النبوية ، ابن هشام ، ج١/ ص٦٨٩.

(٤) ينظر: السيرة النبوية، بن هشام ، ج١/ ص٦٨٩؛ السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبه ، ط٨، دار القلم (دمشق/ ١٤٢٧هـ) ج٢/ ص١٤٧.

وتذكرُ الرواياتُ أنَّ رجلاً يقالُ له قزمان[١] [٣] قاتلَ يومَ أحدٍ قتالاً شديداً حتَّى قتلَ بضعةَ نفرٍ من المشركينَ فأثقلتْهُ الجراحاتُ، فحُملَ إلى دارِ بني ظفرٍ من الأنصارِ، فقالَ له رجالٌ من المسلمينَ: أبشرْ يا قزمانُ، فقدْ أبليتَ اليومَ، وقدْ أصابكَ ما ترى في اللهِ. قال: بماذا أبشرُ؟! فو الله ما قاتلتُ إلَّا حميَّةً عن قومي[٢].

فالولاءُ والنصرةُ والتعاونُ كانتْ من أجلِ القبيلةِ، فمِنْ أجلها يعيشون، وفي سبيلها يموتونَ، وفي فُلكِها يدورون، محقَّةً كانتْ أم مبْطلةً، وهذا ما جعلَ الشاعرَ الجاهليَّ يقول:

وهلْ أنا إلَّا من غزيَّةَ، إنْ غوتْ غويتُ وإنْ ترشدْ غزيَّةُ أرشدِ [٣]

((مقالةٌ جاهليَّةٌ تدعو إلى الانتصارِ العرقيِّ أو القَبليِّ أو القوميِّ أو الحزبيِّ يلزمُ بالأخذِ بالفكرةِ الفُلانيَّةِ ولو كان أمراً باطلاً، لأنَّ الولاءَ للجماعـــةِ لا يكونُ صحيحاً ما لم يلتزمِ المنتمي إليها بكلِّ أفكارِها ومفاهيمها وعقائدها، وأوامرِ ونواهي قادتِها وزعمائِها))[٤]، إنَّها العصبيَّةُ المقيتةُ الَّتي جعلتْ بعضَ القبائلِ تناصرُ مدَّعيها للنُّبوَّةِ ظلماً وبهتاناً، مع علمهم بكذبهـــم، فقدْ ((جاءَ طلحةُ ألنمريُّ، فقال: أينَ مسيلمة [٥]؟ فقالوا مع رسولِ الله! فقال: لا، حتَّى أراهُ، فلمَّا جاءهُ قال: أنتَ مسيلمةُ؟ قالَ: نعم، قالَ: مَنْ يأتيكَ؟ قالَ: رحمنٌ، قال: أفي نورٍ أو في ظلمةٍ؟ فقال: في ظلمةٍ، فقال:

---

(١) قزمان بن حارث حليف بني ظفر من الأوس، قتل نفسه، وكان منافقا؛ ينظر: الإصابة ، ابن حجر، ج٥ / ص٤٤٠.

(٢)ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ج٢ / ص٨٦٨.

(٣) القائل هو دريد بن الصمة؛ ينظر: الأصمعيات اختيار الأصمعي، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، تحقيق: احمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، ط٧، دار المعارف (مصر/١٩٩٣م) ص١٠٧.

(٤) فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، ط٢، دار القلم (دمشق/١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م) ج١ / ص٥٥٦.

(٥) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، متنبئ، من المعمرين ولد ونشأ باليمامة وتلقب في الجاهليَّة بالرحمن وعرف برحمان اليمامة. لقبه النبي ﷺ بالكذاب لادعائه النبوة، قتله وحشي في معركة اليمامة سنة ؛ ينظر: الأعلام، الزركلي ، ج٧/ص٢٢٥.

أشهدُ أنَّك كذَّابٌ، وأنَّ محمَّداً صادقٌ، ولكنَّ كذَّابَ ربيعةَ أحبُّ إليَّ من صادقِ مضرٍ))[١].

فهذه بعضُ الصُّورِ للعصبيَّةِ الممقوتةِ التي كانتْ متجذِّرةً في نفوسِ العربِ في مجتمعِ المفارقاتِ في الجاهليَّة، إذ كانتِ العصبيَّةُ تعويضاً عن المواطنةِ، وحاجةً إلى البقاءِ، فالجاهليُّ الضاربُ في التيهِ، يحملُ وطنَهُ معه أينما حلَّ، وهو في ترحاله وإقامتهِ يشعرُ أنَّ لهُ وطناً، وأنَّ لا وطــنَ له، وأنَّه منتمٍ وغــيرُ منتمٍ، لترد العصبيَّةُ مالئةً الفراغَ في الشعورِ بالمواطنةِ، مُضْحيةً هي الانتماءُ إلى وطنٍ اسمهُ القبيلةُ، وأرضهُا كلُّ أرضٍ، ودَمُها العقيدةُ[٢].

المطلب الخامس

المعالجاتُ الإسلاميةُ للعصبيَّةِ القبليَّةِ

يتَّجهُ الإسلامُ في علاجِ الأمراضِ الأخلاقيَّةِ والمشكلاتِ الاجتماعيةِ إلى أقومِ طريقٍ، ويوجِّهُ الغرائزَ البشريَّةَ والطبائعَ الإنسانيَّةَ إلى المنهجِ السويِّ الصالحِ، فهو لا يقاومُ الرَّغباتِ، بل يقوِّمها، ولا يُناهضُ الطبائعَ والعاداتِ بل يَنهضُ بها، ولا يقتلُ الحيويَّةَ الموجودةَ في النُّفوسِ إذا ما جَمَحَتْ أوْ ينزلُ به إلى الدركِ الأسفلِ، وإنَّما هو يُحْييها ويَسموا بها ويُعليها.

ولقدْ عالجَ الإسلامُ العَصبيَّةَ القَبليَّةَ في نفوسِ العربِ على هذا الأساسِ السليمِ، فوجَّهها إلى الناحيةِ الصالحةِ المستقيمةِ، وحوَّلَ ذلكَ التيارَ القويَّ إلى اتجاهٍ يوصلُ إلى غايةٍ مجيدةٍ، فبعدَ أنْ كانتْ غايةُ المرءِ في الجاهليَّةِ هي نصرةُ قبيلتِهِ، والدِّفاعُ

(١) الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ألشيباني، ابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت/١٤١٥هـ) ج٢/ ص٢٢٠؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة/ ١٤٢٣هـ) ج١٩/ ص٥٤.

(٢) ينظر: صور العادات والتقاليد والقيم الجاهليَّة في كتب الأمثال العربية ، د. محمد توفيق أبو علي، ط٣، شركة المطبوعات (بيروت / ٢٠٠٧م) ص٢٥٠-٢٥١.

عن أهلهِ وعشيرتهِ مهما نأوْا عن الحقِّ وتشبثوا بالباطلِ أصبحتْ الغايةُ في الإسلامِ هي نصرةُ الحقِّ على الباطلِ، ولو حاربَ المرءُ في هذا السبيلِ أهلَهُ وبَنِيْهِ، وتبرَّأ من أمهِ وأبيهِ، وفصيلتهِ التي تؤويهِ، وبذلكَ صارتِ الحميَّةُ في الجاهليَّةِ؛ عزَّةً إسلاميةً وأخوَّةً دينيَّةً، وأصبحَ التنافسُ القبليُّ البغيضُ؛ تنافساً رشيداً يسعى إلى التعميرِ لا التدميرِ، ويهدفُ إلى الإنشاءِ، والهناءِ، لا إلى الهدمِ والإفناءِ، وغدا التسابقُ على المادةِ أو الجاهِ والسلطانِ تسابقاً في سبيلِ اللهِ لإعلاءِ كلمةِ الحقِّ ورفعِ لواءِ الإسلامِ(١).

لقدْ تغيّرتْ حالُ العربِ من قبائلَ مختلفةً مفكّكةً متحاربةً إلى أمةٍ واحدةٍ أصبحتْ خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناسِ، تقومُ على أساسِ روابطِ العقيدةِ الَّتي استعلتْ على ارتباطاتِ القبيلةِ وعصبيَّتِها، وسائرِ الروابطِ الأخرى ((فارتفعتْ موجةٌ من المدِّ الشعوريِّ للعقيدةِ الجديدةِ، تغطِّي على كلِّ العواطفِ والمشاعرِ، وكلِّ الأوضاعِ والتقاليدِ، وكلِّ الصلاتِ والروابطِ ، لتجعلَ العقيدةَ وحدها هي الوشيجةُ التي تربطُ القلوبَ وتربطُ – في الوقتِ ذاتهِ – الوحداتِ التي انفصلتْ عن أصولِها الطبيعيَّةِ في الأسرةِ والقبيلة، فتقومُ بينها مقامَ الدَّمِ والنَّسبِ، والمصلحةِ والصداقةِ والجنسِ واللغةِ وتمزجُ بين هذه الوحداتِ الداخلةِ في الإسلامِ، فتجعلُ منها كتلةً حقيقيةً متماسكةً متجانسةً متعاونةً متكافلةً))(٢)، وهذه الأمَّةُ ارتكزتْ في بنائها على ثلاثِ دعائمَ أساسيَّةَ:

الأولى: الأخوةُ على أساسِ العقيدةِ :-

لقدْ كانتِ الأخوةُ من الدعائمِ الأولى لبناءِ الدولةِ الإسلاميَّةِ الوليدةِ في المدينةِ المنـــوَّرةِ، وكان المهاجرونَ والأنصارُ همُ الدَّعامـــةُ الأولى لهذه الدولـــةِ، فجاءتِ الإخاءُ جمعاً للشملِ، وتوثيقاً للعرى، وقطعاً لدسائسِ الأعداءِ ولا سيَّما اليهود

(١) ينظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، بدون طبعة، دار الندوة الجديدة (بيروت) ص١٩٩-٢٠٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين ألشاربي، ط١٧، دار الشروق (القاهرة/ ١٤١٢هـ) ج٥/ ص٢٨٢٧.

((ومعنى هذا الإخاء أنْ تذوبَ عصبيَّاتُ الجاهليَّة؛ فلا حميَّةَ إلَّا للإسلامِ، وأنْ تسقطَ فوارقُ النّسبِ واللونِ والوطنِ، فلا يتأخّرُ أحدٌ أو يتقدّمُ إلَّا بمروءَته وتقواهُ، وقدْ جعلَ الرَّسولُ ﷺ هذه الأخوةَ عقداً نافذاً؛ لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبطُ بالدماءِ والأموالِ؛ لا تحيةً تثرثرُ بها الألسنةُ، ولا يقومُ لها أثرٌ... وكانتْ عواطفُ الإيثارِ والمواساةِ والمؤانسةِ تمتزجُ في هذه الأخوةِ، وتملأُ المجتمعَ الجديدَ بأروعِ الأمثالِ))[١]، وروى البخاريُّ[٢]:((أنَّه لما قَدِمَ عبد الرَّحْمن بن عوفٍ[٣] المَدينةَ، فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بينهُ وَبين سَعْدِ بْن الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ[٤]، فَعرضَ عليه أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمالـــهُ، فَقَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللهُ لك فِي أَهْلِكَ ومالك دُلَّنِي عَلَى السُّوق، فربحَ شَيْئًا من أَقِطٍ وَسَمْنٍ،

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي السقا ، تخريج الأحاديث : محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم (دمشق/ ١٤٢٧هـ) ص ١٩٠.

(٢) مُحَمَّد بن إسماعيل بن إِبْرَاهِيم بن الْمُغِيرَة، أَبُو عبد الله الجعفيّ، الحافظ لحديث رسول الله ﷺ، له مصنفات كثيرة أشهرها: صحيح البخاري، سمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو (٦٠٠,٠٠٠) ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته؛ ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ألصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث(بيروت/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)ج٢/ص١٤٩؛ الأعلام، الزركلي، ج٦/ ص٣٤.

(٣) عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ عَوْف ابن عَبْد عَوف القُرَشي الزهري، يكنى أبا محمد، من السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة والمدينة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وصلَّى رسول الله ﷺ خلْفَه في سَفْرَة ؛ ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير علي بن محمد، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤١٧هـ /١٩٩٦م) ج٣/ ص٤٩٥.

(٤) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك الأنصاري الخزرجي عقبى بدري كان أحد نقباء الأنصار، وكان كاتبا في الجاهليَّة، وشهد العقبة الأولى والثانية وشهد بدرا وقتل يوم أحد شهيدا؛ ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل (بيروت / ١٤١٢هـ) ج٢ / ص٥٨٩-٥٩٠.

فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ[١] مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَهْيَمْ[٢] يا عبد الرَّحْمَنِ؟) قَالَ: يَا رسول الله، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً من الأَنْصَارِ قَالَ: «فَمَا سُقْتَ فِيهَا؟) فَقَالَ: وَزْنَ نَوَاة من ذَهَـب، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَوْلِمْ ولو بِشَاةٍ)[٣]، إنَّها أروعُ مثالٍ للأخـوةِ القائمـةِ على أساسِ التوحـيدِ، فبالأمـسِ القريبِ كانتْ علاقاتهمْ تقومُ على أساسِ وحدةِ الدَّمِ والأحلافِ، فاليومَ اجتمعتْ كلمتهمْ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ في الأرضِ، وذابتْ بينهم كلُّ العصبياتِ التي كانتْ موجودةً في الجاهليَّة، وانصهرتْ في قالبٍ جديدٍ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.. ﴾[٤]، فإنَّ ((إطلاقَ الأخوَّةِ على المؤمنينَ من بابِ التشبيهِ البليغِ، وشُبِّهوا بالأخوَّةِ من حيثُ انتسابهم إلى أصلٍ واحدٍ، وهوَ الإيمـانُ الموجبُ للحياةِ الأبديَّـةِ، وجوَّزَ أنْ يكـونَ هناك استعارةٌ وتشبهُ المشاركةِ في الإيمانِ بالمشاركةِ في أصلِ التوالدِ؛ لأنَّ كلّاً منهما أصلٌ للبقاءِ، إذْ التوالدُ منشأُ الحياةِ، والإيمانُ منشأُ البقاءِ الأبديِّ في الجنانِ))[٥].

وعن عبدِ الله بن عمر[٦] رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((المسلمُ أَخُو أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، مَن كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ومَن

(١) الوضر: الأثر من غير الطيب ؛ لسان العرب ، ابن منظور، ج٥ / ٢٨٤.

(٢) مهيم: كلمة يستفهم بها، معناها ما حالك وما شأنك؛ المصدر نفسه، ج١٢ / ص ٥٦٦.

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت: ٢٥٦هـ، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١ م)، كتاب: مناقب الأنصار، باب: كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، رقم الحديث (٣٩٣٧).

(٤) الحجرات، جزء من الآية : ١٠.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية (بيروت / ١٤١٥هـ) ج٣/ ص٣٠٣.

(٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى، أبو عبد الرحمن، أسلم مع أبيه وهاجر، وهو وهو من المكثرين عن النبي، وكان كثير الإتباع لآثار رسول الله، لم يقاتل في شيء من

فَرَّج عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[١] ، وفي رواية أخرى: ((وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))[٢]، فالأخوةُ الحقيقيَّةُ بالمنظورِ الإسلاميِّ هي أخوةُ العقيدةِ، فهي الرباطُ القويُّ الذي يشدُّ أواصرَ المجتمعِ، ويقومُ عليها بنيانُهُ، وهو أمرٌ لمْ يتحقق للناسِ ولنْ يتحققَ إلَّا في ظلِّ الإسلامِ[٣] قالَ تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٤].

الدَّعامةُ الثَّانيةُ: الولاءُ لله ولرسولهِ وللمؤمنين :-

ويقصدُ بالولاءِ: النُّصرةُ والمحبَّةُ، والقومُ إذا كانوا يداً واحدةً، والوليُّ النصيرُ والمحبُّ، يقالُ: المؤمنُ وليُّ اللهِ، أيْ محبُّهُ وناصرهُ، والعكسُ كذلك[٥]، قالَ الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا..﴾[٦]، نصيرهم وظهيرهم يتولَّاهم بعونِهم وتوفيقه[١]،

الفتن، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٤/ ص١٨١ وما بعدها؛ وأسد الغابة ، ابن الأثير، ج٣ / ص٣٤٨- ٣٤٩.

(١) صحيح البخاري ، كتاب : المظالم، باب: لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، رقم الحديث (٢٤٤٢)؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم الظلم، رقم الحديث (٢٥٨٠) واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم الحديث (٢٦٩٩) .

(٣) الفصول في السيرة، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحي الدين مطو، ط٣، مؤسسة علوم القرآن (دمشق / ١٤٠٣هـ) ص١٢٠.

(٤) الأنفال : ٦٣.

(٥) ينظر: المخصص، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ج٤/ ص٤٤٣٨؛ المعجم الوسيط، د.إبراهيم أنيس وغيره، ج٢/ ص١٠٥٨

(٦) البقرة، جزء من الآية: ٢٥٧.

والمؤمنون أيَّاً كانتْ قبائلهم، وقوميَّاتهم، وجنسيَّاتهم، بعضُهم أولياءُ بعضٍ، ذابتْ بينهم كلُّ الفوارق، كالجسدِ الواحدِ إذا أشتكى منهُ عضوٌ تدعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحمى، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ.. ﴾[٢]، ((بعضهم أولياءُ بعضٍ في الولايةِ العامَّةِ من أخوَّةٍ ومودَّةٍ وتعاونٍ وتراحمٍ، حتَّى شبَّهَ النَّبيُّ ﷺ جماعتَهم بالجسدِ الواحدِ[٣]، وبالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً[٤]، وولايةُ النصرةِ في الدفاعِ عن الحقِّ والعدلِ، والملةِ والوطنِ، وإعلاءِ كلمةِ اللهِ ﷻ))[٥]، فلا قتالَ تحتَ راياتِ العصبيَّةِ، ولا القبليَّةِ ولا الحزبيَّةِ وغيرها، وإنَّما تحتَ رايةِ الحقِّ سبحانهُ، فعن جندبِ بن عبدِ الله البَجليِّ[٦] رضي الله عنه قال:

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، ت: ٣١٠هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ج٥/ ص٤٢٤.

(٢) التوبة، جزء من الآية: ٧١.

(٣) إشارة إلى قوله ﷺ: (تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث (٦٠١١).

(٤) إشارة إلى قوله ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث (٢٥٨٥).

(٥) تفسير القرآن الحكيم، المعروف بتفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، بدون طبعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة /١٩٩٠ م) ج١٠/ ص٤٦٧.

(٦) جُنْدَبُ بنُ عبدالله بن سُفيان البَجَلي ألعلقي، له صحبة ليست بالقديمة، يكنى أبا عبدالله، سكن الكوفة ثم انتقل إلى البصرة قدمها مع مصعب بن الزبير؛ ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، ج١ / ص٤٤٤.

قال رسولُ الله ﷺ: ((من قاتلَ تحتَ راية عُمِّية[١]، يدعو عصبيَّةً، أو ينصرُ عصبيَّةً، فقتلةٌ جاهليةٌ))[٢]، وقد تظاهرتِ الأحاديثُ في النَّهيِ عن العصبيَّةِ بكلِّ أشكالها وصورِها، العصبيَّةُ للقبيلةِ، أو للجنسِ، أو للأرضِ، فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه[٣] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: ((ليسَ منَّا مَنْ دعا إلى عصبيَّةٍ، وليسَ منَّا مَنْ قاتلَ على عصبيَّةٍ، وليسَ منَّا مَنْ ماتَ على عصبيَّةٍ))[٤].

الدَّعامةُ الثَّالثةُ: التَّعاونُ على البرِّ والتَّقوى:-

التَّعاونُ من الإعانةِ، وهي العونُ والظهيرُ، وتعاونوا: أعانَ بعضهم بعضاً[٥].

والبرُّ: اسمٌ جامعٌ للخيرِ، وأصلهُ الطاعةُ للهِ تعالى[٦]، والتَّقوى لغةً بمعنى الاتِّقاء وهو اتخاذُ الوقايةِ، واصطلاحاً: هو الاحترازُ بطاعةِ اللهِ عن عقوبتِهِ، وهو صيانةُ النَّفسِ عمَّا تستحقُّ بهِ العقوبةَ مِنْ فعلٍ أو تركٍ، والتَّقوى في الطاعةِ يرادُ بها

---

(١) عُمِّية: الأمر الأعمى الذي لا يستبان وجهه؛ ينظر: غريب الحديث، عبد الرحمن بن أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، تحقيق: د.عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ج٢ / ص ١٢٨.

(٢) سنن أبي داود، كتاب: الأدب، باب: العصبية، رقم الحديث (٥١٢١) وقال الألباني: ضعيف؛ وقال جمال الدين المزي: هذا مرسل، عبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير؛ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، ط٢، المكتب الإسلامي (بيروت/ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) مسند جبير بن مطعم، رقم الحديث (٣١٨٨).

(٣) جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، كان من أكابر وعلماء النسب، قدم على النبي ﷺ في فداء أسرى بدر، فسمعه يقرأ الطور قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي، أسلم بين الحديبية والفتح، ومات في خلافة معاوية؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج١/ ص٤٦٢.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم الحديث (١٨٥٠).

(٥) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ج٣/ص١٢٨؛ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج٤/ ص٢٨٩.

(٦) الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ، أ. د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، ط ٤، دار الفكر (دمشق) ج١٠/ ص٣٢٩.

الإخلاصُ، وفي المعصيةِ يرادُ به التركُ والحذرُ، والمتَّبعُ عندهم هو الذي أتَّقى متابعةَ الهوى[١]، ((لقد استطاعتِ التربيةُ الإسلاميَّةُ بالمنهجِ الربَّانيِّ، أنْ تروِّضَ نفوسَ العربِ على الانقيادِ لهذه المشاعرِ القويَّةِ، والاعتيادِ لهذا السلوكِ الكريمِ، وكانتْ أبعدَ ما تكونُ عن هذا المستوى وعن هذا الاتجاهِ، كانَ المنهجُ العربيُّ المشهورُ: «أنصرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً» وكانَ التعاونُ على الإثمِ والعدوانِ أقربُ وأرجحُ من التعاونِ على البرِّ والتقوى، وكان الحلفُ على النُّصرةِ، في الباطلِ قبلَ الحقِّ، ونَدَرَ أنْ قامَ في الجاهليَّة حلفٌ للحقِّ، وذلك طبيعيٌ في بيئةٍ لا ترتبطُ باللهِ ولا تستمدُّ تقاليدَها ولا أخلاقَها من منهجِ اللهِ وميزانِ الله))[٢]، وفي تقويم الإسلامِ لهذهِ الرَّغبةِ القوميَّةِ والعَصـــبيَّةِ القَبليَّةِ، يقولُ ﷺ: « انصرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَو مَظْلُوماً» فقالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذا كانَ مَظْلُوما، أَفَرَأَيْتَ إِذا كانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ »[٣]، إنَّه الشعارُ نفسهُ، ولكنَّ الإسلامَ هذَّبهُ وجعلهُ تناصراً في الحقِّ، وتعاوناً على الخيرِ، قال تعالى: ﴿..وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٤]، ((يأمـــرُ تعالى تعالى عبادَهُ المؤمنينَ بالمعاونةِ على فعلِ الخيراتِ، وهو البرُّ، وتركُ المنكراتِ وهو التَّقوى، وينهاهم عن التناصرِ على الباطلِ))[٥]، ولقـــدْ كان صاحـــبُ الرِّسالةِ ﷺ قدوةً حسنةً في التَّعاونِ على البرِّ والتَّقوى، فعن عثمانَ بن عفّان ﷺ[٦] أنَّه كانَ

(١) التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت: ٨١٦هـــ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي (بيروت/ ١٤٠٥هـــ) ص٩٠.

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب، ج٢ / ص٨٣٩.

(٣) سبق تخريجه في صفحة: ٤، بهامش رقم: ١.

(٤) المائدة، جزء من الآية : ٢.

(٥) تفسير بن كثير، ج٢ / ص١٠.

(٦) عُثْمانُ بنُ عَفَّان بنِ أبي العَاصِ بنِ أُمَيَّةَ بن عَبْدِ شمْس القرشي الأُمَوِي، يلقب بذي النورين لأنه تزوج ببنتي النبي ﷺ واحدة بعد أخرى، أسلم في أول الإسلام، بدعاء أبي بكر، من

يخطبُ فقال: ((إنّا والله قدْ صَحِبْنَا رسولَ اللهِ ﷺ في السّفرِ والحضرِ، وكان يعودُ مرضانا، ويتَّبعُ جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير))[١].

المبحث الثاني
التفاخرُ بالأنسابِ ، والعلاجُ الإسلامي له

كان التفاخرُ والتعاظمُ بين أهلِ الجاهليَّة سمةً اجتماعيةً سائدةً، إذْ كانتِ المفاخرةُ بمآثرِ الآباءِ والأجدادِ، والسِّيادةِ والرِّيادةِ ، أمراً شائعاً، فكلُّ قبيلةٍ تعتقدُ أنَّها أعرقُ نسباً من غيرها، وأقبلُ شرفاً، وأسمى نفساً من سائرِ القبائلِ، والخطباءُ يتفاخرونَ في الأسواقِ، والمواسمِ بقبائلهم، فيعدُّون مآثرها، ويمجِّدون فعالها وفضائلها، ولقدْ كان في سوقِ عكاظَ[٢]، ومجنة[٣]، وذي المجاز[٤]، مجالٌ رحبٌ يُتَصارعُ فيه بالخطابةِ

العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن الستة أصحاب الشورى، وثالث الخلفاء الراشدين، قتل ﷺ بالمدينة يوم الجمعة (١٨/ ذي الحجة/ ٣٥هـ)؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٢/ ص٤٥٦؛ أسد الغابة، ابن الأثير، ج٣ / ص٦٠٦.

(١) مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عثمان بن عفان ﷺ، رقم الحديث (٥٠٤) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن؛ وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن زاهر وهو ثقة. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب: الفتن، رقم الحديث (١١٩٩٩).

(٢) عكاظ: أعظم أسواق العرب في الجاهليَّة، كانت قبائل العرب تجتمع فيه كل سنة للتفاخر، ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون الشعر في شهر شوّال ثم يتفرّقون، وبه كانت أيام الفجار، وعكاظ بين نخلة والطائف؛ ينظر: معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ط٢، دار صادر (بيروت / ١٩٩٥ م) ج٤ / ص١٤٢.

(٣) مجنّة: من أسواق الجاهليَّة، تقع خلف عرفة، تقيم فيه العرب عشرين يوما من ذي القعدة، بعد انصرافهم من عكاظ ؛ المصدر نفسه، ج٤ / ص١٤٢.

(٤) ذو المجاز: من أسواق الجاهليَّة، تقع بمرّ الظهران كانت العرب تقيم فيه بعد مجنة إلى أيام الحجّ ؛ المصدر السابق، ج٤ / ص١٤٢.

والشعرِ؛ يعلنونَ علوَّ قبيلٍ على قبيلٍ، ورفعةَ عشيرةٍ على أخرى[١]، جاءتْ الرواياتُ ((أنَّ بدرَ بن معشر أحدَ بني غفارِ بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة، جعلَ له مجلساً بسوق عكاظَ، وكان حدثاً منيعاً في نفسهِ، فقامَ في المجلسِ وقامَ على رأسه قائمٌ، وأنشأ يقولُ:

نحن بنو مُدركة بن خندف[٢] من يطعنوا في عينه لم يطرف [٣]
ومن يكونوا قومه يغطرف[٤] كأنَّهم لجّة بحـــــــرٍ مسدف[٥]

ومدَّ رجلهُ وقال: أنا أعزُّ العربِ، فمنْ زعمَ أنَّهُ أعزُّ منِّي فليضربْها! فضربَها الأحمرُ ابن مازن أحدُ بني دهمان بن نصر بن معاوية، فأندرَها[٦] من الركبةِ، وقال: وقال: خذها إليك أيها المُخندف[٧] ، وقال في ذلك:

نحنُ بنو دهمان[٨] ذو التغطرف بحرٌ لبحرٍ زاخرٍ لمْ ينزف
نبني على الأحياءِ بالمعرّف[١]

(١) ينظر: العصبية في ضوء الإسلام ، هاشم محمد علي المشهداني، دار الثقافة (الدوحة/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م) ص٢١٥.

(٢) بنو خندف: بطن من مضر من العدنانية، وهم بنو الياس بن مضر، وخندف أسم امرأته عرف بنوه بها، وأسمها ليلى بنت حلوان، وسميت خندف يقال: خندف الرجل إذا مشى يقلب قدميه كأنه يغرف بهما؛ ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندى، ص٢٤٨.

(٣) يطرف: يلحظ، والطرف: تحريك الجفون في النظر؛ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج٩/ ص٢١٣.

(٤) التغطرف : الاختيال في المشي خاصة ؛ ينظر: لسان العرب ،ابن منظور، ج٩/ ص٢٧٠.

(٥) مسدف: مضيء ومظلم، وهو من الأضداد ؛ المصدر نفسه ، ج٩/ ص١٤٧.

(٦) أندرها: أسقطها ؛ المصدر السابق : ج٥ / ص١٩٩.

(٧) خندف الرجل : أنتسب إلى خندف ؛ المصدر السايق : ج٩ / ص٩٩.

(٨) بنو دهمان: بطن من بني هوازن من العدنانية، وهم بنو دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بكر ابن هوازن ؛ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي، ج١/ ص٢٥٢.

فتحاورَ الحيَّانِ عندَ ذلك حتى كادَ أنْ يكونَ بينهما الدماءُ، ثمَّ تراجعوا ورأوْا أنَّ الخطبَ يسيرٌ)) (٢).

(١) المعرَّف: وهو موضع الوقوف بعرفة ؛ ينظر: معجم البلدان، الحموي، ج٥/ ص١٥٥.

(٢) العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ج٦ / ص١٠١.

المطلب الاول

التفاخرُ بالأنسابِ لغةً واصطلاحاً

التَّفاخرُ هو تفاعلٌ مِنْ فَخَرَ، والفاءُ والخاءُ والرَّاءُ أصلٌ صحيحٌ، وهوَ يدلُّ على عِظَمٍ وقِدَمٍ، من ذلكَ الفخرُ: هوَ عدُّ القديمِ، وادِّعاءُ العظم والكبر والشرف. والفَخَر، والفِخْر، والفُخْر، والفَخَار، والفَخارة، التمدُّح بالخصال. فَخَر يَفْخَر فَخْراً، وفَخْرةً حَسنة، فَهُوَ فاخِر وفَخُور. وكَذَلِكَ: افتخر. وتَفاخر القومُ: فَخر بعضُهم على بعض، وهو نشرُ المناقبِ وذكرُ الكرامِ بالكرمِ. وفاخَره مُفاخرةً وفِخَاراً: عارَضه بالفَخْر، والفخير: الكثير الفخر. والفاخر: الشيءُ الجيِّدُ. والتَّفخُّر: التَّعظُّمُ، وفي التنزيل: ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١]، الفخور: أي المتكبر، والتفاخر: التعاظم، والتَّفخُّر: التَّعظُّمُ والتَّكبُّرُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: ((أَنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ))[٢]، لم يقصد به الافتخار ولا التطاول على من تقدمه بل قاله بيانا لما أمر ببيانه وتبليغه. والفَخِيرُ: الْمَغْلُوبُ بالفَخْر. والمَفْخَرَة والمَفْخُرة، بِفَتْحِ الْخَاءِ وَضَمِّهَا: المَأْثُرة وَمَا فُخِرَ بِهِ[٣].

---

(١) لقمان، جزء من الآية: ١٨.

(٢) مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري ﷺ ، رقم الحديث (١٠٩٨٧) وهو جزء من حديث طويل، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره؛ سنن الترمذي، باب: في فضل النبي ﷺ رقم الحديث (٣٦١٥) وقال: هذا حديث حسن؛ سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، الشهير بابن ماجه، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف (الرياض/ ١٤١٧هـ) كتاب: الزهد، باب: الذكر الشفاعة، رقم الحديث (٤٣٠٨) واللفظ له، وقال الألباني: صحيح.

(٣) ينظر: العين، الفراهيدي، ج٤/ ص٢٥٤؛ مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٤/ ص٤٨٠؛ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج٥/ ص١٧٢؛ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المشهور بشرح النووي على مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٣٩٢هـ) لسان العرب، ابن منظور، ج٥/ ص٤٨-٤٩.

والأنساب جمع نسب، والنَّسَبُ: نَسَبُ القَراباتِ، والنِّسْبةُ والنُّسْبَةُ والنَّسَبُ: القَرابةُ؛ وقِيلَ: هُوَ فِي الآبَاءِ خاصَّةً، وقِيلَ: النِّسْبَةُ مصدرُ الانْتِسابِ؛ والنُّسْبَةُ: الاسمُ. والنَّسَبُ يَكُونُ بالآباءِ، ويكونُ إِلى الْبِلادِ، ويَكُونُ فِي الصِّناعة. وانْتَسَبَ واستنسَبَ: ذَكَرَ نَسَبه. ونَسَبْتُ فُلاناً إِلى أَبيه أَنْسُبه وأَنْسِبُهُ نَسْباً إِذا رَفَعْتَ فِي نَسَبه إِلى جَدِّه الأَكبر(١).

فالتفاخرُ بالأنسابِ: هو التعاظمُ والتكبُّرُ والتمدُّحُ بعدِّ مآثرِ الآباءِ والأجدادِ.

المطلب الثاني

التفاخرُ بالأنسابِ في مكةَ

كانت لقريشٍ مكانتُها الخاصَّةُ بينَ العربِ، فهمْ سدنةُ البيتِ وعُمَّارهُ، مهوى أفئدةُ العربِ، وكانوا ينظرونَ إلى أنفسهِم كأنَّهم جنسٌ فضَّلهُ اللهُ ﷻ على بقيَّةِ أجناسِ العربِ، لهم مناسكهُم، ولبقيَّةِ العربِ مناسكهُم، ولهم قِبَابٌ خاصةٌ يضربونَها لأنفسهِم في سوقِ عكاظَ وفي المواضعِ الأخرى تميِّزُهم عن سائرِ من يفدْ إلى هذهِ المواضعِ، وسمُّوا أنفسَهم بالحُمْسِ(٢)، وترفَّعوا عن مصاهرةِ سائرِ النَّاسِ إلَّا إذا وجدُوا أنَّهم أكفاءُ لهم(٣)،((وكانتِ المفاخرةُ من طبعِ العربِ حتَّى في الأشياءِ الَّتي ليس لهم فيها فضلٌ، والمموحةِ لهم من اللهِ ﷻ مثلَ الشكلِ والنَّسبِ إلى آخرهِ، لأنَّ أحداً لا يختارُ أباهُ وأمَّهُ ليتفاخرَ بهما، وإنَّما كلُّ ذلك هو عطاءٌ من الله سبحانه وتعالى))(٤).

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٣/ ص١٣؛ لسان العرب، ابن منظور، ج١/ ص٧٥٥-٧٥٦.

(٢) الحمس: سمو الحمس لتحمسهم في دينهم، وهو لقب قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس، وهم فهر وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان، وبنو عامر بن صعصعة، ومن تابعهم في الجاهليَّة ؛ ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبُّيدي ، ج١٥ / ص٥٥٥.

(٣) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، ج١١ / ص٣٦٨.

(٤) تفسير الشعراوي، المعروف بخواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، بدون طبعة، مطابع أخبار اليوم (مصر/ ١٩٩٧م) ج٨ / ص٤٩٦٤.

عن عبدِالله بن عباسٍ[١] رضيَ اللهُ عنهما قالَ: ((أنَّ العربَ كانوا عندَ الفراغِ من حجَّتهم، يعدُّ الواحدُ منهم أيامَ آبائه، في السماحـــةِ، والحماســـةِ، وصلةِ الرَّحمِ ويتناشدونَ فيها الأشعارَ))[٢]، فيقومُ مِنْ كلِّ بطنٍ شاعرٌ وخطيبٌ فيقولُ: منَّا فلانٌ، ولنا يومُ كذا وكذا، فلا يتركُ فيه شيئاً من الشرفِ إلا ذكرهُ، ثمَّ يقولُ: مَنْ كانَ ينكرُ ما يقولُ، أو لهُ يومٌ كيومِنَا، أو له فخرٌ مثلَ فخرِنا، فليأتِ به ثمَّ يقومُ الشَّاعرُ فينشدُ ما قيلَ فيهم من الشِّعرِ، فمَنْ كانَ يفاخرُ تلك القبيلةَ، أو كانَ بينهُ وبينها منافرةٌ أو مفاخرةٌ، قامَ فذكرَ مثالبَ تلك القبيلةِ، وما فيها من مساوئَ، وما هجيتْ به من الشعرِ، ثمَّ فخرَ هو بما فيه[٣]، ولذلكَ ((كان الشاعرُ في الجاهليَّة يُقدَّمُ على الخطيبِ لفرطِ حاجتهم إلى الشعرِ الذي يقيِّدُ عليهم مآثرهم، ويضخِّمُ شأنهم ويهوِّل على عدوِّهم ومن غزاهم، ويهيبُ في فرسانهم ويخوِّفُ من كثرةِ عددهم ويَهابُهم شاعرُ غيرهم فيراقبُ شاعرهم))[٤].

وتعتبرُ المفاخرةُ بالأنسابِ مظهراً من مظاهرِ العَصبيَّةِ القَبليَّةِ، إذْ كانوا ينسبونَ كلَّ فضيلةٍ لقبيلتـــهم، ويُلصقونَ كلَّ نقيـــصةٍ بمنْ يفاخرُهم، ولذلك يقولُ النبيُّ ﷺ: ((أربعٌ في أمَّتي من أمرِ الجاهليَّة لا يتركونهنَّ: الفخرُ في الأحسابِ، والطعنُ في

(١) عَبْدالله بْن عَبَّاس بْن عَبْدالمطلب بْن هاشم، أَبُو الْعَبَّاس الْقُرَشِيّ الهاشمي ابْنُ عم رَسُول الله، كان يسمى حبر الأمة، لسعة علمه، حنكه النَّبِيّ ﷺ بريقه عند ولادته، ودعا له بأن يعلمه الله التأويل، كان يقربه عمر رغم صغره لسعة علمه، حج بالناس لما حُصر عثمان، استعمله عليّ عَلَى البصرة أميرًا، وشهد مَعَ عليّ صفين، وكان أحد الأمراء فيها، وهو أحد المكثرين من رواة الحديث ؛ ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، ج٣ / ص٢٩٥.

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د.وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط٢، دار الفكر المعاصر (دمشق/ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) ج٢ / ص٢١٤.

(٣) ينظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغساني المعروف بالأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، بدون طبعة، دار الأندلس (بيروت/ ١٣٨٩هـ) ج٢ / ص٢٧٤.

(٤) البيان والتبيين ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، أللّيثي، الشهير بالجاحظ، بدون طبعة، دار ومكتبة الهلال (بيروت/ ١٤٢٣هـ) ج١ / ص١٠.

الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ..))[١]، وكانوا يجعلونَ بينهم الحكَّامَ في مفاخراتهم ومنافراتهم[٢]، فلمَّا تولَّى هاشمُ بن عبدِ مناف[٣] أمرَ مكَّةَ بعدَ أبيه، وسادَ قومَهُ بما كان له من محاسنِ الأخلاق، وجليلِ الشِّيَمِ، وكمالِ الشجاعةِ، وغيرِ ذلكَ من المآثرِ والمفاخرِ الجليلةِ، حسدَهُ ابن أخيهِ أميَّةُ بنُ عبدِ شمس[٤]، ودعا هاشمَ إلى المفاخرةِ، فقال له هاشمٌ: أفاخركَ على خمسينَ ناقةٍ تنحرُ بمكَّةَ، والجلاءِ عن مكَّةَ عشرَ سنينَ، فرضيَ أميَّةُ بذلكَ، وجعلا بينهما حَكَماً، وخرجا إليه ومعهما جماعةٌ من قومهما، فقالوا للحكمِ: أحكمْ بين هاشمَ بنَ عبدِ منافٍ، وبينَ أميَّةَ بنَ عبدِ شمسٍ أيُّهما أشرفُ بيتاً ونسباً؟ فقال الحَكَمُ: والقمرِ الباهرِ، والكوكبِ الزاهرِ، والغمامِ الماطرِ، وما بالجوِّ طائرُ، وما اهتدى بعَلَمٍ مسافرُ، لقدْ سبقَ هاشمُ أميَّةَ إلى المآثرِ، فأخذَ هاشمُ الإبلَ ونحرَها وأطعــمَها منْ حضرَ، وخرجَ أميَّةُ إلى الشَّامِ، وأقامَ بها عشرَ سنينَ، ويقالُ إنَّها أوَّلُ عداوةٍ وقعتْ بين بني هاشمَ وبني أميَّةَ[٥].

---

(١) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، كتاب: الجنائز، باب: التشديد في النياحة، رقم الحديث (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري.

(٢) جمع منافرة، وهي المحاكمة في النسب، ذلك بأن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يحكما بينهما رجلا؛ ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ج٥ / ص٢٢٦.

(٣) هاشمُ بن عبدِ مناف واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي القرشي، جد الرسول ﷺ، وإنما سمي هاشما؛ لأنه هشم لهم الخبز. وأول من سن الرحلتين لقريش في الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وفي الصيف إلى الشام، وكانت إليه الرفادة والسقاية، ومات بغزة فقبره بها؛ ينظر: جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلاذري، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر (بيروت/ ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ج١ / ص٥٨.

(٤) جمع منافرة ، وهي المحاكمة في النسب، ذلك بأن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يحكما بينهما رجلا ؛ ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ج٥ / ص٢٢٦.

(٥) أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي من قريش جاهلي عاش إلى ما بعد مولد النبي ﷺ، وصفه النسابة دغفل فقال: رأيت شيخا قصيرا نحيف الجسم يقوده عبده ذكوان. كان في وفود قريش على سيف بن ذي يزن؛ ينظر: الشعور بالعور، صلاح الدين خليل بن عزالدين أيبك بن عبدالله الصفدي، تحقيق: د. عبدالرزاق حسين، دار عمار (عمَّان /١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨هـ) ج١/ ص٢٤٨.

فكانت هذه المفاخراتُ والمنافراتُ تكونُ بين الأفرادِ كما تكونُ بين القبائلِ، فقد تكاثرَ بنو عبدِ مناف وبنو سهمٍ وكان بينهم لِحَاءٌ(١)، فتعاندَ السَّادةُ والأشرافُ أيُّهمْ أكثرُ، فقال بنو عبد مناف: نحنُ أكثر سيِّداً وأعزُّ عزيزاً وأعظمُ نفراً، وقال بنو سهمٍ مثلَ ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا حتى زارُوا القبورَ، فعدُّوا موتاهم فكثرهم بنو سهم، لأنَّهم كانوا أكثرَ عدداً في الجاهليَّة (٢).

المطلب الثالث

التفاخرُ بالأنسابِ في المدينةِ المنوَّرةِ

المجتمعُ المدنيُّ يختلفُ بطابعهِ عن المجتمعِ المكيِّ، فمكَّةُ السِّيادةُ فيها لقريشٍ، وقبائلُ الجزيرةِ تقرُّ لهم بذلك، وأمَّا المدينةُ ففيها عدَّةُ قبائلَ متنفذةً، أكبرها الأوسُ والخزرجُ واليهودُ الذين يدَّعون أنَّهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه(٣)، وكانتِ الكلمةُ العليا في المدينةِ عندَ هجرةِ الرَّسولِ ﷺ للعربِ، ولكنَّ القبائلَ العربيَّةَ كانتْ متناحرةً فيما بينها من عشراتِ السنينِ بسببِ تفاخرٍ وقع بين رجلينِ في أحدِ أسواقِ المدينةِ، أحدُهما كان أوسياً، والآخرُ حليفاً للخزرجِ، فقتلَ الأوسيُّ الحليفَ، فطالبَ الخزرجُ بديَّةِ حليفهم- وكانتْ ديَّةُ الحليفِ نصفُ ديَّةِ الصَّريحِ – فلمْ يرضَ الخزرجيُّون إلَّا بديَّةٍ كاملةٍ، فأبى الأوسيّون الدَّفعَ، فجرى بينهم حربُ سمِّيتْ: حربُ سمير، لأسمِ القاتلِ، ثمَّ تحاكموا إلى المنذرِ بن حِرامٍ النجاريِّ الخزرجيِّ جدِّ حسانَ بن ثابت بن

(١) اللحاء: المنازعة والمشاتمة؛ ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ج١٥/ ص٢٤٢.

(٢) ينظر: أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، تحقيق: عصام ابن عبد المحسن الحميدان، ط٢، دار الإصلاح (الدمام /١٤١٢هـ /١٩٩٢م) ص٤٦٤.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المائدة: ١٨.

المنذر[١]، فأجابهم إلى ذلك، فأتوا المنذرَ، فحكمَ بينهم المنذرُ بأنَّ يدُوا الخزرج ديَّةَ الصريحِ ثمَّ يعودوا إلى سنَّتهم القديمةَ، فرضُوا بذلكَ وحملـوا الديَّةَ وافترقوا، وقدْ شبَّتِ البغضاءُ في نفوسهمْ وتمكَّنتْ العداوةُ بينهم[٢].

ولقد ظلَّتْ هذه المفاخراتُ حتى في عهدِ الرَّسولِ ﷺ فعن جابرِ بن عبدالله[٣] ﷺ قال: جاءتْ بنو تميم إلى النَّبيِّ ﷺ فقالوا: نحنُ ناسٌ من بني تميمَ جئْنا بشاعرنا وخطيبنا نُشاعِرُكَ ونفاخركَ. فقالَ رسولُ الله ﷺ: (ما بالشِّعرُ بعثْتُ، ولا بالفخارِ أُمِرتُ، ولكنْ هاتوا) فقال الزُّبرقانُ بن بدر[٤] لشابٍ من شبابهم قمْ فاذكرْ فضلـكَ وفضلَ قومكَ، فقامَ فقالَ: الحمدُ للهِ الَّذي جعلنا خيرَ خلقهِ، وآتانا أموالاً نفعـلُ فيها ما نشاءُ، فنحنُ من خيرِ أهلِ الأرضِ، ومن أكثرِهم عُدَّةً، ومالاً وسلاحاً، فمن أنكرَ علينا قولَنا فليأتِ بقولٍ هو أحسنُ من قولِنا، وفعالٍ هي خيرٌ من فعالنا، فقال رسولُ

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو الأنصاري الخزرجي، شاعر الرسول ﷺ، يكنى أبا الوليد وهي الأشهر، روى عن النبي ﷺ أحاديث قال أبو عبيدة: فضل حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهليَّة وشاعر النبي ﷺ في أيام النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج٢/ ص٦٢.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ ، ابن أثير، ج١/ ص٥١٩.

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب الأنصاري السلمي، يكنى أبا عبد الله، أحد المكثرين عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة، وله ولأبيه صحبة، شهد العقبة، وبدرا، وكان ينقل لأصحابه الماء يومئذ، ثم شهد بعدها مع النبي (١٨) غزوة، وشهد صفين مع علي ﷺ؛ ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر، ج١/ص٢٢٠؛ والإصابة، ابن حجر، ج١/ ص٤٣٤.

(٤) الزبرقان بن بدر بن امرئ ألقيس بن خلف السعدي التميمي، يكنى أبا عياش، وفد على رسول الله ﷺ في قومه وكان أحد سادتهم فأسلموا وذلك في سنة تسع، فولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه وأقره أبو بكر وعمر على ذلك، وكان سَيِّداً في الجاهليَّة عظيم القدر في الإسلام، وكان يقال له: قَمَرُ نجد، لجماله؛ ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر، ج٢/ ص٥٦٠-٥٦١؛ أسد الغابة، ابن الأثير، ج٢/ ص٢٩٢.

الله ﷺ لثابتِ بنِ قيسٍ بنِ شمَّاس[١]: (قمْ فأجبْهُ) فقامَ فقالَ: الحمدُ للهِ أحمدهُ وأستعينهُ وأؤمنُ به، وأتوكَّلُ عليه وأشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، دعا المهاجرين من بني عمِّهِ أحسنَ الناسِ وجوهاً وأعظمهم أحلاماً فأجابُوه، فالحمدُ لله الذي جعلنا أنصارَهُ ووزراءَ رسولهِ وعزاً لدينه، فنحنُ نقاتلُ الناسَ حتى يشهدوا أنْ لا إله إلَّا الله، فمنْ قالها منعَ منَّا نفسهُ ومالَهُ، ومن أباها قتلْنَاهُ، وكان رَغْمُهُ[٢] في الله تعالى علينا هيناً، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ للمؤمنينَ والمؤمناتِ. قال: فقامَ الأقرعُ بن حابسٍ[٣]فقالَ:

أتيناكَ كيما يعرفَ النَّاسُ فضلنا ... إذا فاخرونا عنـــد ذكرِ المكارمِ

وإنَّا رءوسُ الناسِ في كل معشرٍ ... وأنْ ليس في أرضِ الحجازِ كدارمِ[٤]

وإنَّ لنا المرباعَ[٥] في كلِّ غارةٍ ... تكونُ بنجدٍ أو بأرضِ التهائمِ[٦]

---

(١) ثابت بن قيس بن شماس بن ظهير بن مالك الخزرجي، يكنى أبا محمد، وكان ثابت خطيب الأنصار، ويقال له خطيب رسول الله ﷺ، شهد أحدا وما بعدها من المشاهد، وقتل يوم اليمامة شهيدا في خلافة الصديق ﷺ ؛ ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر، ج١/ ص٢٠٠.

(٢) الرَّغْم: الذُّلُّ والقَسر؛ ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ج١٢/ ٢٤٦.

(٣) الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي الدرامي، وفد على النبي ﷺ وشهد فتح مكة وحنينا والطائف وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن إسلامه وكان الأقرع حكما في الجاهليَّة ؛ ينظر: الإصابة ، ابن حجر، ج١/ ص٢٣٠.

(٤) دارم بن مالك بن حنظلة بن تميم من العدنانية، قال الجوهري: وكان يسمى بحراً وذلك أن أباه أتاه قوم في حملة فقال له يا بحر ائتني بخريطة كان فيها مال فجاءه وهو يدرم تحتها، أي= =يقارب الخطى من ثقلها فسمي دارما؛ ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس القلقشندى ، ص٢٤٩.

(٥) المرباع : ربع الغنيمة ؛ ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ج٢/ ص٢٢٣.

(٦) التهائم : جمع تهامة وهي أرض منخفضـــة بين ساحل البـــحر وبين الجبال في الحجاز واليمن، وسميت تهامة لشدّة حرّها وركود هوائها؛ ينظر: معجم البلدان، الحموي، ج٢/ ص٦٣؛ المعجم الوسيط ، د. إبراهيم أنيس وآخرون، ج١/ ص٩٠.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (قمْ يا حسَّانُ فأجبْهُ) فقامَ حسَّانُ، فقالَ:

بني دارمَ لا تفخروا إنَّ فخركم يعودُ وبالاً عندَ ذكرِ المكارمِ
هَبلتمْ علينا تفخــرونَ وأنتـــمْ لنا خولٌ[١] من بين ظئرٍ[٢] وخادمِ
وأفضلُ ما نلتمْ من المجدِ والعلا ردافتنا من بعدِ ذكرِ الأكارمِ
فإنْ كنتم جئْتُم لحقنِ دمائِكم وأموالكم أنْ تقسموا في المقاسمِ
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ولا تفخروا عند النَّبيِّ بدارمِ
وإلَّا وربُّ البيتِ مالتْ أكفُّنَا على هامِكم بالمرهفاتِ الصوارمِ[٣]

قال: فقامَ الأقرعُ بن حابسٍ فقالَ: إنَّ محمَّداً لمُؤتَىً لهُ، واللهِ ما أدري ما هذا الأمرُ، تكلَّمَ خطيبُنا فكان خطيبُهم أحسنُ قولاً، وتكلَّمَ شاعرُنا فكان شاعرُهم أشعرُ، ثمَّ دنا من النَّبيِّ ﷺ فقالَ: أشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّكَ رسولُ الله[٤].

فهذه بعضُ صورِ التفاخرِ بالأنسابِ التي كانت منتشرةً ومتأصلةً في المجتمعِ الجاهليِّ.

(١) الخول: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية؛ لسان العرب ، ابن منظور، ج١١ / ص٢٢٤.
(٢) الظئر: المرضعة غير ولدها؛ المصدر نفسه، ج٤ / ص٥١٥.
(٣) المرهفات الصوارم : السيوف الرقيقة القاطعة ؛ ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري ، ج١٢/ ص١٣١.
(٤) الحنائيات، أَبُو القَاسِمِ الحُسَيْنُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ الدِّمَشْقِيُّ، الحِنَّائِي، تحقيق: خالد رزق محمد جبر، أضواء السلف (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م) وقال: هذا حديث غريب من حديث عبد الحميد ابن جعفر الأنصاري عن عمر بن الحكم بن رافع أبي حفص الأنصاري عن أبي عبد الله جابر ابن عبد الله الأنصاري لا نعرفه إلا من حديث المعلى بن عبد الرحمن الأنصاري عنه ؛ ج٢/ ص١١٠٩.

المطلب الرابع

المعالجاتُ الإسلاميةُ للتَّفاخرِ بالأنسابِ

إنَّ معرفةَ الناسِ لأنسابِهم من الضروراتِ الاجتماعيَّةِ، فأوَّل ما يُعْرَفُ الإنسانُ بنسبِهِ، ويتميَّزُ به عن الآخرينَ، وهو من النِّعمِ الَّتي مَنَّ اللهُ تعالى بها على النَّاسِ، كما شرعَ له الزواجَ والمصاهرةَ سبيلاً لتمكينِ صلةِ قرابتهِ بالآخرين، قالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[١]، ومعرفةُ الناسِ لأنسابهم تجعلُ الناسَ يتواصلونَ فيما بينهم، ويتراحمونَ، ويتعاونونَ، ولهذا حثَّ النبيُّ ﷺ المسلمينَ على حفظِ أنسابهم وتعلُّمِها[٢]، فقال:((تعلَّمُوا من أنسابِكم ما تصلونَ به أرحامَكم، فإنَّ صلةَ الرَّحمِ محبةٌ في الأهلِ، مَثْرَاةٌ في المالِ، منسأةٌ في الأثرِ))[٣].

لقد أقامَ الإسلامُ مجتمعاً على أساسِ رابطةٍ روحيَّةٍ يتمثَّلُ في إيمانهم بإلهٍ واحدٍ، واعتقادهم بغايةٍ واحدةٍ للحياةِ ومصيرٍ واحدٍ، وهذا الرباطُ من القوةِ والأصالةِ إذ جُعلَ أساساً يتجمَّعُ حولهُ المسلمونَ دونَ اعتبارٍ لِمَا تواضعَ عليه البشرُ أزماناً طويلةً، فلا اعتبارَ – في المجتمعِ الإسلاميِّ– للنسبِ وشرفهِ، فقدْ وضعَ الإسلامُ عن

---

(١) الفرقان: ٥٤.

(٢) ينظر: الأنساب والأولاد دراسة لموقف الشريعة الإسلامية من التلقيح الصناعي وما يسمى بأطفال الأنابيب، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم (دمشق/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) ص١١.

(٣) مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ، رقم الحديث (٨٨٦٨) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن؛ سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في تعليم النسب، رقم الحديث (١٩٧٩) واللفظ له، وقال الألباني: صحيح؛ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية (القاهرة) باب: العين، رقم الحديث (١٧٦)؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون. كتاب: العلم، باب: في علم النسب، رقم الحديث (٩٣٠).

النَّاسِ وِزْرَ التفاخرِ بالأنسابِ والتعصُّبِ لها... ولا اعتبارَ للجنسِ، فالإسلامُ يرفضُ أنْ يفترَّقَ النَّاسُ أجناساً مختلفةً، وأنْ تفصِلَ بينهم فواصلُ من صنعِ أيديهم تَحْمِلُ في طيّاتها عواملَ التفكُّكِ وبذورَ الانهيارِ، ولهذا فقد احتضنَ المجتمعُ الإسلاميُّ أوَّلَ المسلمينَ من كلِّ جـــنسٍ، ولم يجدْ الحبشيُّ أو الفارسيُّ أو الرُّوميُّ حائلاً يمنعهم من الانتسابِ لهذا المجتمعِ، بلْ والتَّصدُّرِ فيه[١]، فلقد ((كان لعبدِ الله بن رواحة ﷺ[٢] أمَةٌ سوداءٌ، فلطمَها في غضبٍ ثمَّ نَدِمَ، فأتى النَّبيَّ ﷺ فأخبرهُ، فقالَ: «ما هي يا عبدَ الله؟» قال: تصومُ وتُصلي وتحسنُ الوضوءَ وتشهدُ الشهادتين، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «هذهِ مؤمنةٌ» فقالَ ابنُ رواحةَ: لأعتقنَّها ولأتزوَّجنَّها، ففعلَ، فطعنَ عليه ناسٌ من المسلمينَ وقالوا: نكحَ أمةً، وكانوا يرونَ أنْ يُنْكحوا إلى المشركينَ، وكانوا يُنْكِحونهم رغبةً في أحسابِهم، فنزلتْ قولَه تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٣].))[٤]، فالمؤمنُ خيرٌ وأحبُّ إلى الله – وإنْ كان عبداً– مِن المشرك وإنْ كان سيِّـــداً، يقولُ ﷺ: ((إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طَفَّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوهُ، ليس لأَحَدٍ على أَحَدٍ فَضْلٌ إِلا بِالدِّينِ

(١) ينظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامـــعة الإسلامية (المدينة المنورة/ ١٤٢٣هـــ/٢٠٠٣م) ج٢/ ص٥٥٢.

(٢) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ ألقيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي، الشاعر المشهور، يكنى أبا محمد، ليس له عقب، من السابقين الأولين من الأنصار، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرا وما بعدها واستشهد بمؤتة؛ ينظر: الإصابة ، ابن حجر،ج٤/ ص٨٢.

(٣) البقرة: ٢٢١.

(٤) لم أجده في كتب الحديث مخرجاً ؛ تفسير القرطبي ، ج٣/ ص٦٩-٧٠.

أو عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلاً جَبَانًا))[١]، فإنَّه لا قيمةَ للحسبِ ولا للنَّسبِ إذا كان المرءُ هابطاً في نفسهِ وخلقِهِ وفاسداً في سلوكهِ، فالشَّرفُ والكمـــالُ فيما عليه الإنسانُ من زكاةِ روحـــهِ وسلامةِ خُلُقِهِ وإصابةِ رأْيهِ وكثرةِ معارفهِ[٢].

ميزانُ التفاضلِ في الإسلامِ :

لقد ذكرَ اللهُ ﷻ في آياتٍ عدَّةٍ من القرآنِ الكريمِ خلقَ النَّاس كلِّهم من نفسٍ واحدةٍ[٣]، والمقصودُ بها آدمُ عليه السلام كما أشارَ إلى ذلكَ كثيرٌ من المفسرين[٤]، وهذا يوحِي بأنْ لا فضلَ لأحدٍ على أحدٍ، لا لأبيضٍ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ، ولا لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بميزانٍ وضـــعَهُ اللهُ ﷻ وهو الإيمانُ والتقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[٥]، ((يا أيُّها النَّاسُ المختلفونَ

---

(١) مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر، رقم الحديث (١٧٣١٣) واللفظ له ، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن؛ المعجم الكبير، الطبراني، باب: العين، رقم الحديث (٨١٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة وفيه لين، وبقية رجاله وثقوا، كتاب: الأدب، باب: لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، رقم الحديث (١٣٠٧٦).

(٢) ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، ط٥، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) ج٥/ ص١٣١.

(٣) قال محمد بن جرير الطبري: ((الذي خلقكم من نفس واحدة، يعني: من آدم عليه السلام))؛ تفسير الطبري، ج٧/ص٥١٤. قال إسماعيل بن كثير: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ.. ﴾ يعني: آدم عليه السلام؛ تفسير ابن كثير، ج٢ /ص٢١٨.

(٤) قال محمد بن جرير الطبري: ((الذي خلقكم من نفس واحدة، يعني: من آدم عليه السلام))؛ تفسير الطبري، ج٧/ص٥١٤. قال إسماعيل بن كثير: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ.. ﴾ يعني: آدم عليه السلام؛ تفسير ابن كثير، ج٢ /ص٢١٨.

(٥) الحجرات : ١٣.

أجناساً وألواناً، المتفرقونَ شعوباً وقبائلَ؛ إنَّكم من أصلٍ واحدٍ، فلا تختلفوا ولا تتفرَّقُوا ولاتتخاصَمُوا ولا تذهبُوا بدداً؛ إنَّ الغايةَ من جعلِكُم شعوباً وقبائلَ ليستِ التناحرُ والخصامُ؛ إنَّما هي التعارفُ والوئامُ، فأمَّا اختلافُ الألسنةِ والألوانِ، واختلافُ الطباعِ والأخلاق، واختلافُ المواهبِ والاستعداداتِ، فتنوُّعٌ لا يقتضي النِّزاعَ والشقاقَ، بل يقتضي التعاونَ للنهوضِ بجميعِ التكاليفِ والوفاءِ بجميعِ الحاجاتِ، وليس للَّونِ والجنسِ واللُّغةِ والوطنِ وسائرِ هذه المعاني من حسابٍ في ميزانِ اللهِ، إنَّما هنالكَ ميزانٌ واحدٌ تتحدَّدُ به القيمُ، ويعرفُ به فضلُ النَّاسِ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ والكريمُ حقاً هو الكريمُ عندَ الله، وهو يزنُكُم عن عِلْمٍ وعن خبرةٍ بالقيمِ والموازين: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وهكذا تسقطُ جميعُ الفوارق، وتسقطُ جميعُ القيمِ، ويرتفعُ ميزانٌ واحدٌ بقيمةٍ واحدةٍ، وإلى هذا الميزانِ يتحاكمُ البشرُ، وإلى هذه القيمةِ يرجعُ اختلافُ البشرِ في الميزانِ))[١]، يُروى في سببِ نزولِ هذه الآيةِ أنَّه ((لمَّا كان يومُ فتحِ مكَّةَ أمرَ رسولُ الله ﷺ بلالاً[٢] حتى أذَّنَ على ظهرِ الكعبةِ، فقالَ عتَّابُ بن أسيدِ بن أبي العيص[٣]: الحمدُ للهِ الذي قبضَ أبي حتى لمْ يرَ هذا اليومَ. وقال الحارثُ بن هشامٍ[٤]: أما وجدَ محمَّدٌ غيرَ هذا الغرابِ الأسودِ مؤذناً؟!

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ، ج٦/ص ٣٣٤٨.

(٢) بلال بن رباح الحبشي المؤذن وهو بلال بن حمامة، اشتراه أبو بكر ﷺ من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد، فأعتقه، فلزم النبي ﷺ وأذن له، وشهد معه جميع المشاهد، وآخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، ثم خرج بلال بعد النبي ﷺ مجاهدا إلى أن مات بالشام؛ ينظر: الإصابة، ابن حجر، ج١/ ص٧٣٣.

(٣) عَتَّاب بنُ أسِيد بن أبِي العِيصِ بن أُمَيَّة القُرَشِي الأموي. يكنى أبا عبد الرحمن، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله النبي على مكة بعد الفتح لما سار إلى حُنَين، فأقام للناس الحج، وهي سنة ثمان، ولم يزل على مكة إلى أن توفي رسول الله ﷺ وأقره أبو بكر عليها إلى أن مات، وتوفي يوم مات أبو بكر ﷺ؛ ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، ج٣/ ص٥٧٥-٥٧٦.

(٤) الحَارِثُ بنُ هِشَام بن المُغِيْرة بن عبد الله، أبو عبد الرحمن القرشي، المخزومي، وهو أخو أبي جهل لأبويه، شهد بدراً كافراً فانهزم وأسلم يوم الفتح، وشهد حنيناً، فأعطاه الرسول ﷺ

وقالَ سهيلُ بن عمرو[١]: إنْ يردِ اللهُ شيئاً يغيِّرهُ، وقال أبو سفيان[٢]: إنِّي لا أقولُ شيئـــاً أخافُ أنْ يخبرَ به ربُّ السماءِ، فأتى جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ وأخبرهُ بما قالوا، فدَعاهم وسألهُم عمَّا قالوا، فأقرُّوا، فأنزلَ اللهُ ﷻ هذهِ الآية، وزجرهمْ عن التفاخرِ بالأنسابِ والتكاثرِ بالأموالِ والازدراءِ بالفقراءِ))[٣].

وبعدَ أنْ طافَ رسولُ اللهِ ﷺ بالبيتِ العتيقِ، وقفَ بين تلكَ الجموعِ الَّتي طالما افتخرتْ بأنسابِها، وأحسابِها في مثلِ هذهِ الأيامِ، وأعلنَ فيهم المبادئَ الَّتي أقامَها الإسلامُ فقالَ: ((أيُّها النَّاسُ: فإنَّ اللهَ قد أذهبَ عنكم عُبِّيَّة[٤] الجاهليَّة، يا أيُّها النَّاسُ إنَّما النَّاسُ رجلانِ: برٌّ تقيٌّ كريمٌ على ربِّهِ، وفاجـــرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على ربِّهِ، ثمَّ تلا:

مائة من الإبل من غنائم حنين، كما أعطى المؤلّفة قلوبهم، وخرج إلى الشام مجاهداً أيام عمر رضي الله عنه بأهله وماله واستشهد يوم اليرموك؛ينظر:أسد الغابة،ابن الأثير،ج١/ ص٥١٤-٥١٥.

(١) سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود القرشي العامري، يكنى أبا يزيد كان أحد أشراف قريش وسادتهم وخطيبهم في الجاهليَّة، أسر يوم بدر كافرا، وهو الذي مثل قريشا في الحديبية، مات في طاعون عمواس؛ ينظر :الاستيعاب ،ابن عبد البر، ج٢/ ص٦٦٩.

(٢) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس أبو سفيان القرشي الأموي مشهور باسمه وكنيته يكنى أيضا أبا حنظلة، وهو والد معاوية ورملة أم المؤمنين، أسلم عام الفتح وشهد حنينا والطائف، كان من المؤلفة، وكان قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد، ويوم الأحزاب، أصيبت عينه يوم الطائف، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه؛ ينظر: الإصابة، بن حجر، ج٣/ ص٤١٢.

(٣) أسباب نزول القرآن ، الواحدي ، ص٣٩٥.

(٤) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس أبو سفيان القرشي الأموي مشهور باسمه وكنيته يكنى أيضا أبا حنظلة، وهو والد معاوية ورملة أم المؤمنين، أسلم عام الفتح وشهد حنينا والطائف، كان من المؤلفة، وكان قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد، ويوم الأحزاب، أصيبت عينه يوم الطائف، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه؛ ينظر: الإصابة، بن حجر، ج٣/ ص٤١٢.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ.. ﴾[١]، حتى قرأ الآيةَ، ثمَّ قالَ: أقولُ هذا واستغفرُ اللهَ لي ولكم))[٢].

فالإيمانُ والتقوى هما ميزانُ التفاضلِ في المجتمعِ الذي أقامَهُ الإسلامُ.

وفي حجَّةِ الوداعِ ذلكَ المؤتمرُ الإسلاميُّ العالميُّ، إذ يتجرَّدُ النَّاسُ عن كلِّ آصرةٍ إلا آصرةِ الإسلامِ، ويتجـــردُون عن الأثوابِ التي تميِّزُهم، أرادَ اللهُ ﷻ أنْ يبطلَ ما كانتْ تفعلُهُ قريشٌ من عدمِ وقوفِها في عَرَفَةَ ، فعن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالـــتْ: ((كانتْ قريـــــشُ ومن دانَ دينَها يقفونَ بالمزدلفةِ، وكانوا يســـــمُّونَ الحُمْسَ، وكان سائرُ العربِ يقفونَ بعرفاتٍ، فلمَّا جاء الإسلامُ أمرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ أنْ يأتيَ عرفاتٍ، ثمَّ يقفَ بها، ثمَّ يفيضَ منها ، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[٣]..))[٤]، فأبطلَ اللهُ ما كانوا يفعلونَه، وأمرهم بالوقوفِ مع النَّاسِ، والانصرافِ معهم، فالنَّاسُ كلُّهم سواسيةٌ كأسنانِ المشطِ، فليس في الإسلامِ طبقاتٌ ولقد سبق ((أنَّهم كانوا يأتونَ أسواقَ عكاظَ ومجنَّةَ وذي المجاز، وهذهِ الأسواقُ لمْ تكنْ أسواقَ بيعٍ وشراءٍ فحسب؛ إنَّما كانتْ كذلك أسواقَ كلامٍ ومفاخراتٍ بالآباءِ، ومعاظماتٍ بالأنسابِ؛ ذلك حينَ لم يكنْ للعربِ من الاهتماماتِ الكبيرةِ ما

---

(١) الحجرات : ١٣.

(٢) سنن الترمذي، أبواب التفسير، باب: ومن سورة الحجرات، رقم الحديث (٣٢٧٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله ابن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره، وهو: والد علي بن ألمديني، وقال الألباني: صحيح؛ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد التميمي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة (بيروت/ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) كتاب: الحج، باب: دخول مكة، رقم الحديث (٣٨٢٨) واللفظ له ، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.

(٣) البقرة، جزء من الآية: ١٩٩.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾، رقم الحديث (٤٥٢٠).

يُشغلهم عن هذه المفاخراتِ والمعاظمات ، لم تكنْ لهم رسالةٌ إنسانيَّةٌ بعد يُنفقونَ فيها طاقةَ القولِ وطاقةَ العملِ، فرسالتُهم الإنسانيَّةُ الوحيدةُ هي التي ناطهم بها الإسلام، فأمَّا قبلَ الإسلامِ، فلا رسالةَ لهم في الأرضِ، ولا ذكرَ لهم في السماءِ، ومن ثمَّ كانوا ينفقونَ أيامَ عكاظَ ومجنَّةَ وذي المجاز في تلك الاهتماماتِ الفارغةِ في المفاخرةِ بالأنسابِ وفي التعاظمِ بالآباءِ، فأمَّا الآنَ وقدْ أصبحتْ لهم بالإسلامِ رسالةٌ ضخمةٌ، وأنشأ لهم الإسلامُ تصوراً جديداً، بعد أنْ أنشأهم نشأةً جديدةً. أمَّا الآنَ فيوجِّههم القرآنُ لما هو خيرٌ، يوجههم إلى ذكرِ اللهِ بعد قضاءِ مناسكِ الحجِّ، بدلاً من ذكر الآباءِ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا.. ﴾[١].))[٢].

وفي أوسطِ أيامِ التشريقِ في حجَّةِ الوداعِ أعادَ الرسولُ ﷺ إعلانَ تلكَ المبادئِ حتى تستقرَّ في القلوبِ والأذهانِ فقالَ: (يا أيُّها النَّاسُ ألا إنَّ ربكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى. أبلغتُ؟) قالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ[٣].

(١) البقرة ، جزء من الآية : ٢٠٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ، ج١/ ص٢٠١.

(٣) مسند أحمد، تتمة مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث (٢٣٤٨٩) واللفظ له، وهو جزء من حديث طويل، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح؛ شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، (الرياض/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م) مما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، رقم الحديث (٤٧٧٤)؛ وقال البوصيري: رجاله ثقات. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم البوصيري، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، دار الوطن (الرياض/ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) كتاب: الحج، باب: خطبة النبي ﷺ بمنى، رقم الحديث (٢٦١٤).

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قلوبكم وَأَعْمَالِكُمْ »[١]، فما قيمةُ الجسمِ والصورةِ والمالِ إنْ كانَ القلبُ خاوٍ عن ذكرِ اللهِ، إنَّها قيمٌ أرضيَّةٌ ظاهرةٌ زائلةٌ ليستْ لها وزنٌ في ميزانِ الله ﷻ، فميزانُ اللهِ يرفعُ ويخفضُ بغير هذه الموازين.

التفاخرُ بالأنساب من أمورِ الجاهليَّة

لقد جعلَ الرَّسولُ ﷺ التفاخرَ بالأنسابِ، والطعنَ فيها من أمورِ الجاهليَّةِ، الَّتي لا يتركُها النَّاسُ، فقالَ: ((أربعٌ في أمَّتي من أمرِ الجاهليَّةِ لا يتركونهُنَّ: الفخرُ في الأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ...))[٢]، وفي روايةٍ أخرى: ((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ))[٣]، والجاهليَّةُ ((هيَ الحالُ الَّتي كانتْ عليها العربُ قبلَ الإسلامِ من الجهلِ بالله ﷻ ورسولهِ وشرائعِ الدِّينِ والمفاخرةِ بالأنسابِ والكِبْرِ والتَّجبُّرِ وغير ذلك))[٤]، إذْ كان أهلُ الجاهليَّة يتفاخرونَ بآبائهم الَّذينَ ماتوا في الجاهليَّة ويعدُّونَ مآثرهم ((فشبَّه ﷺ المفتخرينَ بآبائهم الَّذين ماتوا في الجاهليَّةِ بالجُعَلِ[٥]، وآباءَهم المفتخَرُ بهم بالعَذَرَةِ، ونفسَ افتخارِهم بهم بالدَّهْدَهَةِ[٦] بالأنفِ، والمعنى أنَّ أحدَ الأمرينِ واقعٌ البتــةَ، إمَّا الانتهاءُ عنِ الافتخارِ أوْ كونهِم أذلَّ عندَ اللهِ تعالى من الجعلِ الموصوفِ))[٧]، فعن

(١) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: باب تحــريم ظلم المســلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم الحديث (٢٥٦٤).

(٢) سبق تخريجه في صفحة: ٣٠، برقم: ١٢٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر على الطعن في الأنساب والنياحة على الميت، رقم الحديث (٦٧).

(٤) لسان العرب، ابن منظور، ج١١/ ص١٣٠.

(٥) الجُعل: حَيَوَان كالخنفساء يكثر فِي الْمَوَاضِع الندية؛ ينظر: المعجم الوسيط، د.إبراهيم أنيس وغيره، ج١ / ص١٢٦.

(٦) دهدهت الحجارة، ودهديتها : إذا دحرجتها ؛ تهذيب اللغة، الأزهري. ج٥/ص٢٣٤.

(٧) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر (بيروت/ ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م) ج٧ / ص٣٠٧٣.

أبي هريرةَ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: ((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الذين مَاتُوا إِنَّما هم فَحْمُ جَهَنَّمَ، أو لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على اللهِ مِنَ الجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الخِرَاءَ بِأَنْفِهِ...))[١].

والقرآنُ الكريمُ يصوِّرُ لنا مشهداً من مشاهدِ يومِ القيامةِ، إذ تتطايرُ الصحفُ، وتوضعُ الموازينُ، ويكونُ الإنسانُ في أشدِّ الحاجةِ إلى مُعينٍ، فيقولُ سبحانه:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[٢]، أيْ: لا يتفاخرونَ بالأنسابِ ويذكرونها لما هم فيه من الحيرةِ والدَّهشةِ، فلا أنسابَ نافعةٌ، فقد تقطعتِ الروابطُ، وسقطتِ القيمُ التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا[٣].

(١) مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة □، رقم الحديث (٨٧٣٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن؛ سنن أبي داود، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب، رقم الحديث (٥١١٦)؛ سنن الترمذي، أبواب المناقب، رقم الحديث (٣٩٥٥) واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن. وقال الألباني: حسن.

(٢) المؤمنون : ١٠١.

(٣) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤١٨هـ /١٩٩٨م) ج٤/ ص١٦٣؛ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير (دمشق/ ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ج٣/ ص٥٩٠؛ في ظلال القرآن، سيد قطب ، ج٤/ ص٢٤٨١.

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على صاحبِ الخلق العظيم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ أهمَ النتائجِ التي توصلتُ إليها من خلال البحثِ، هي:

١- أنَّ القرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبويَّةَ قدْ عنيا بموضوعِ الأخلاقِ عنايةً بالغةَ الأهميَّةِ.

٢- قد نهى اللهُ ﷻ والرَّسولُ ﷺ عن بعضِ الأخلاقياتِ السَّيِّئةِ في بدايةِ الدَّعوةِ، بينما احتاجَ بعضُها الآخرُ إلى سنينَ لاقتلاعِها وبيانِ سلبيَّاتِها.

٣- ترتبطُ الأخلاقُ ارتباطاً وثيقاً بمعتقداتِ الأفرادِ والشُّعوبِ، فإنْ سمتْ معتقداتُهم زكتْ أخلاقُهم وسلوكيَّاتُهم.

٤- عانتِ الجزيرةُ العربيَّةُ من سلوكياتٍ منحرفةٍ من بعضِ مَنْ ينتسبونَ إليها أفراداً وجماعاتٍ، فأفسدَتْ العيشَ على الآخرينَ وأعطَتْ صورةً غيرَ حضاريَّةٍ عن واقعِهم المؤلمِ.

٥- حدَّدنا خلالَ البحثِ الكثيرَ من تلكَ الأخلاقياتِ المنحرفةِ وبيَّنَّا مدَى تأثيرِها على واقعِ الفردِ والأسرةِ والمجتمعِ.

٦- أنَّ الدِّينَ يغيِّرُ المفاهيمَ، فيجعلُ رابطةَ الدِّينِ أعلَى، وأقوَى، وأولَى من رابطةِ العصبيَّةِ، وصلةِ القرابةِ، والانتماءِ للأسرةِ، ومن ثمَّ إيثار طاعةِ اللهِ ﷻ ورسوله ﷺ على كلِّ شيءٍ في الحياةِ.

٧- ميزانُ التَّفاضلِ بينَ النَّاسِ هوَ التَّقوى والعملُ الصَّالحُ كما قالَ تعالَى: ﴿..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ..﴾، الحجرات:١٣، بعد أنْ كانَ الحسبُ والنَّسبُ.

٨- الحقُّ أحقُّ بالإتباعِ من الآباءِ والأجدادِ والسَّادةِ والكبراءِ، فبالحقِّ يُعرفُ الرِّجالُ، وليسَ بالرِّجالِ تعرفُ الحقُّ.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع بعد القران الكريم

١- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامـــعة الإسلامية (المدينة المنورة/ ١٤٢٣هـــ/٢٠٠٣م) ج٢/ ص٥٥٢.

٢- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغساني المعروف بالأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، بدون طبعة، دار الأندلس (بيروت/ ١٣٨٩هـــ).

٣- أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط٢، دار الإصلاح (الدمام / ١٤١٢هـــ/١٩٩٢م).

٤- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، ت: ٨٥٢هـــ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل (بيروت/ ١٤١٢هـــ/ ١٩٩٢م).

٥- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، ت: ١٣٩٦هـــ ، ط١٥، دار العلم للملايين (بيروت/ ٢٠٠٢ م).

٦- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، ط٥، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة/ ١٤٢٤هـــ/ ٢٠٠٣م).

٧- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، أللّيثي، الشهير بالجاحظ، بدون طبعة، دار ومكتبة الهلال (بيروت/ ١٤٢٣هـــ).

٨- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت/١٤٠٧هـــ /١٩٨٧م).

٩- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت: ٨١٦هـــ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي (بيروت/ ١٤٠٥هـــ).

١٠- تفسير الشعراوي، المعروف بخواطر الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي، بدون طبعة ، مطابع أخبار اليوم (مصر/ ١٩٩٧م).
١١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي ، ط٢، دار الفكر المعاصر (دمشق/ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
١٢- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور، ت: ٣٧٠هـ ، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي (بيروت/٢٠٠١م).
١٣- جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري، محمد بن جرير ابن يزيد بن كثير الطبري، ت: ٣١٠هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).
١٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١ م).
١٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت: ٢٥٦هـ، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١ م).
١٦- الحنائيات، أَبُو القَاسِمِ الحُسَيْنُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ الدِّمَشْقِيُّ، الحِنَّائِي، تحقيق: خالد رزق محمد جبر، أضواء السلف (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
١٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤١٨هـ /١٩٩٨م).
١٨- دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل، ط ٣، دار النفائس (بيروت/ ٢٠٠٧م).
١٩- دلائل النبوة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الآلوسي، تحقيق: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤١٥هـ).
٢١- السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مكتبة ابن حجر (بيروت/ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).
٢٢- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د.علي محمد محمد الصلابي ، دار ابن كثير (دمشق / ٢٠٠٤).
٢٣- السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبه ، ط٨ ، دار القلم (دمشق/ ١٤٢٧هـ).
٢٤- شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد ابن الحسن المرزوقي الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
٢٥- صور العادات والتقاليد والقيم الجاهليَّة في كتب الأمثال العربية ، د. محمد توفيق أبو علي، ط٣، شركة المطبوعات (بيروت / ٢٠٠٧م).
٢٦- العصبية القبلية من منظور إسلامي، د.خالد عبد الرحمن الجريشي، ط٢، مكتبة الملك فهد الوطنية (الرياض/١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).
٢٧- العصبية في ضوء الإسلام ، هاشم محمد علي المشهداني ، دار الثقافة (الدوحة/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).
٢٨- العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
٢٩- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، بدون طبعة، دار الكتب العلمية (بيروت/ ١٤١٨هـ).
٣٠- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير (دمشق/ ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).

٣١- الفصول في السيرة، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحي الدين مطو، ط٣، مؤسسة علوم القرآن (دمشق/ ١٤٠٣هـ).
٣٢- فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، ط٢، دار القلم (دمشق/١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).
٣٣- فقه السيرة، محمد الغزالي السقا، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم (دمشق/ ١٤٢٧هـ).
٣٤- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين ألشاربي، ط١٧، دار الشروق (القاهرة/ ١٤١٢هـ).
٣٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي، المكتبة التجارية الكبرى (مصر/ ١٣٥٦هـ).
٣٦- القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، بدون طبعة، دار الندوة الجديدة (بيروت).
٣٧- الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ألشيباني، ابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت/١٤١٥هـ).
٣٨- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على ابن منظور الأنصاري الإفريقي، ت: ٧١١ه ، ط٣، دار صادر (بيروت/ ١٤١٤هـ /١٩٨٤م).
٣٩- المخصص، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).
٤٠- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر (بيروت/ ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).

٤١- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المعروف بصحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٤٢- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المعروف بصحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: ٢٦١هـ، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٤٣- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ط٥، دار القلم (بيروت/ ١٩٨٤م).

٤٤- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي (بيروت).

٤٥- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المشهور بشرح النووي على مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي (بيروت/ ١٣٩٢هـ).

٤٦- الأنساب والأولاد دراسة لموقف الشريعة الإسلامية من التلقيح الصناعي وما يسمى بأطفال الأنابيب، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم (دمشق/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) .

٤٧- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن علي القلقشندى، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط٢، دار الكتاب أللبنانين (بيروت/ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).